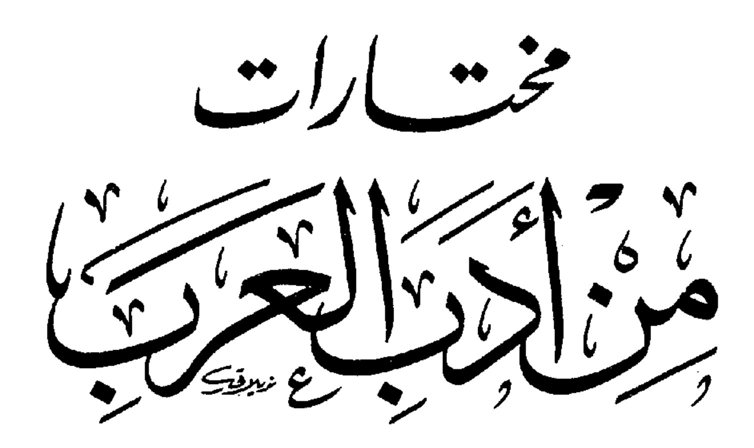


مختارات من أدب العرب

قسم النثر

مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية
من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري

للعلامة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

رئيس جامعة دار العلوم - ندوة العلماء - بلكهنؤ

الجزء الأول

تعليق

أبي الفضل عبد الحفيظ البلياوي

أستاذ الأدب في دار العلوم - ندوة العلماء سابقًا

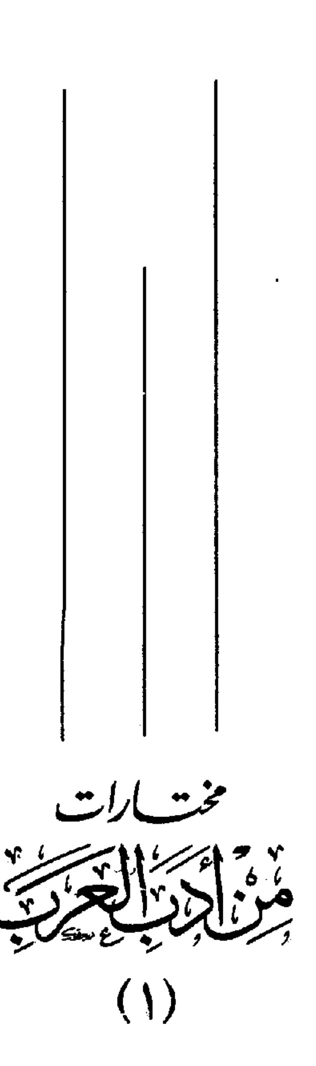
ملتزم الطبع والنشر:

مؤسسة الصحافة والنشر

ص. ب ٩٣ - لكهنؤ - الهند

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الثمن -/80 روبية


مختارات
من أدب العرب
(١)



«المختــارات»

كمَا يَـرَاها أديبْ عَرَبـي كَبـير

وهو الأستاذ علي الطنطاوي الذي يعتبر في طليعة أدباء العربية اليوم ومن أقدر كتّابها وصاحب طريقة وأسلوب فيها وقد اشتغل بالتـدريس في جـامعتي بغـداد ودمشق وشغل منصب القضـاء مـدة من الزمن وله عشرات من المؤلفـات أكثرهـا في الأدب والنقد والتاريخ.

إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة ـ وكلهم من الأدباء ـ يبحث ويفتش، فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن أجـود كتب المختـارات المدرسيـة، وأجمعهـا لفنـون القـول، وألـوان البيان، مختارات أبي الحسن.

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه، إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا

نقتصر في الاختيار ، على «وصف الكتاب» للجاحظ ، وهو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، ولا يمدها روح ، ولا تخالطها حياة ، وعلى ألاعيب ابن العميد ، وغلاظات الصاحب ، وهندسات القاضي الفاضل ، فننفر التلاميذ من الأدب ، ونكرهه إليهم ، وكنا نقول لهم : إن البيان الحق عند غير هؤلاء ، وإن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية وأكثر علماً ، وأشد تصرفاً في فنون القول ، وأكبر أستاذية ، وإن الحسن البصري أبلغ منهما ، وإن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري[١].

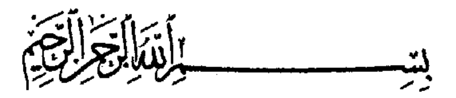
وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء ، وابن خلدون في المقدمة ، وابن الجوزي في الصيد ، وابن هشام في السيرة ، بل والشافعي في الأم ، والسرخسي في المبسوط ، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب ، من قراءة حماقات الصاحب ، ومخرقات الحريري وابن الأثير .

وكتبت في ذلك مراراً ، فما التفت إلى ذلك أحد ، فيئست منه ، حتى وجدت كتاب أبي الحسن ، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضاً ، وحرثها حرثاً ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتابه[٢] .

* * *

(١) وقد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد في الأدب وعكف عليه ، ولكنها حق كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المتنبي وأعظم .

(٢) الأستاذ علي الطنطاوي في مقدمته لكتاب «المسلمون في الهند» طبع دار الفتح بدمشق .



مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد! فإن الأدب العربي قد أصيب بمحنة أصيب بها أدب كل أمة ، وهي محنة تكاد تكون طبيعية ومطردة للآداب واللغات إلا أن آجالها تختلف ، فقد يطول أجل هذه المحنة في أدب قوم ويقصر في أدب قوم آخرين ، وذلك يرجع إلى الأحوال الاجتماعية والعوامل السياسية وحركات الإصلاح والتجديد ، والبعث الجديد ، فإذا توفرت في أمة قصر أجل هذه المحنة ، وإذا فقدت أو ضعفت طال أمد هذه المحنة وطال شقاء الأدب والأمة بها .

إن هذه المحنة هي تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على هذا الأدب الذين يتخذونه حرفة وصناعة ويحتكرونه احتكاراً ويتنافسون في تنميقه وتحبيره ليثبتوا به براعتهم وتفوقهم ويصلوا به إلى أغراضهم ، ويستمر ذلك ويستفحل حتى يصبح الأدب مقصوراً عليهم مختصاً بهم ، ويأتي على الناس زمان لا يفهم من كلمة «الأدب» إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدي لا قوة فيه ولا روح ، ولا جدة فيه ولا طرافة ، ولا متعة فيه ولا لذة .

ويطغى هذا الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة ، وتحتوي عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبعي وكلام مرسل ، وتعبير بليغ يحرك النفوس ويثير الإعجاب ، ويوسع آفاق الفكر ، ويغري بالتقليد ، ويبعث في النفس الثقة ، ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والإنشاء ولم يتخذوه حرفة ومكسباً ، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية ، ولم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي ، ولم يكن في سياق أدبي ، وإنما جاء في بحث ديني ، أو كتاب علمي ، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي ، فبقي مغموراً مطموراً في الأدب الديني ، أو الكتب العلمية ، ولم يشأ الأدب الصناعي ـ بكبريائه ـ أن يفسح له في مجلسه ولم ينتبه له مؤرخو الأدب ـ بضيق تفكيرهم وقصور نظرهم ـ فينوهوا به ويعطوه مكانه اللائق به .

إن هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية ، بل هو أكبر سناً وأسبق زمناً من الأدب الصناعي ، فقد دون هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يدون الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصناعي ، مع أنه هو الأدب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة أهل اللغة ولباقتهم ، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى .

ونأخذ كتب الحديث والسيرة ـ كمثال لهذا الأدب الطبعي ـ أولاً فنقول : إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبة الأدب العربي ـ على سعتها وغناها ـ وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين وأساليب بيانهم ، ولئن صح ما قاله الرقاشي : «إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ،

أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره» فكتب الحديث النبوي تسد هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي تنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي أعتقد أنه قد ضاع ، وتمتاز أنها قد اتصل سندها وصحت روايتها فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول وللأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب.

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، والتعبير الرقيق ، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية ، وللغة العربية بالسعة والجمال.

أما الروايات الطويلة فهي ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة وهي التي تجلت فيها بلاغة الراوي العربي واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير ، وهي التي يطول فيها نفسه فيحكي حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة وأحاسيس دقيقة ، ومناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان ولا يخونه البيان ولا يتخلف عنه مدد اللغة ، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان.

اقرأ معي حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك وهو موضوع دقيق محرج ، يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش في صدره وتساورَ نفسه وهو يعيش في جفاء وعتاب ممن يحبهم وتربطه بهم العقيدة والعاطفة ، لا يجد لذة في فراقهم ولا يرى في الدنيا عوضاً عنهم ، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي ﷺ

ربطاً وثيقاً محكماً، لا يحله العتاب والعقاب ، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه وتوددهم إليه ، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ، وما أكثره تعقداً ودقة ، ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية والأدبية ، ويترك لنا ثروة نعتز بها .

اقرأ معي هذه القطعة الصغيرة التي أقتبسها من حديثه الطويل ، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء ، ويصور تلك الحالة النفسية التي تخلف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعادته ، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال ، وصدق التصوير وبراعة التعبير .

«وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد الجد . فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت! فلم يقدر لي ذلك . فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء» .

ثم انظر كيف يصوّر حالته وقد هجره المسلمون ونهوا عن كلامه ، وكيف يعبّر عن حالة المحب الذي هجره الحبيب ـ عقوبة وتأديباً ـ وهو يطمع في وده ويتسلى بنظراته والذي لم يزده هذا العتاب إلا رسوخاً في المحبة ولوعة وجوى ، دعه يقص قصته بلسانه البليغ :

«ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من

تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد السلام ، فقلت يا أبا قتادة! أنشدك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار» .

واقرأ معي كذلك حديث الإفك الذي ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الأدبية وقوتها البيانية ، وحسن تصويرها ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، وقد تجلت في هذه القطعة رقة عاطفة المرأة المحبة لزوجها مع إباء الحرة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربها. وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقة والشدة ، والعاطفة والعقل. زد إلى ذلك بيان عائشة التي تقلبت في أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ، قد أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفني ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة في الأدب .

انظر كيف تصف ما تقـوّله الناس وتحدثوا به وما شعرت به من تغير في وجـه الرسول ﷺ ، تـذكر كل ذلك في حيـاء المـرأة وأدبها من غير إبهام أو عي :

قالت عائشة : «فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في

وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي. إنما يدخلُ علي رسول الله ﷺ فيسلم ثمّ يقول كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذلك يريبني، ولا أشعر بالشر».

وتذكر توجعها من الخبر المشاع فتقول: «فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: «وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي».

وتتقدم في الحكاية وتذكر كيف يسألها رسول الله ﷺ عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق، فلا تلبث أن تعتريها حمية المرأة العفيفة الفاضلة، ويقلص دمعها حتى لا تحس منها بقطرة، وترجو أباها وأمها أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ فيمتنعان ويفضلان السكوت حياء من رسول الله ﷺ واستحياء من الدفاع عن قضية بنتهما وهو الدفاع عن النفس، فتنبري للكلام القوي الصريح المبين ـ وهي البليغة الأديبة ـ وتتمثل بقول سيدنا يعقوب وتفوض أمرها إلى الله، وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله ﷺ وتقوم إليه فتأبى ـ في دلال العفائف وأنفة المؤمن ـ أن تحمد إلا الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سماوات، وخلد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن ويؤمن به.

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية وذكرها لتفاصيلها وما وقع لرسول الله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه في الطريق، ووصولهما إلى المدينة، وكيف تلقاهما الأنصار، وفرحوا بقدوم رسول الله ﷺ وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ، وللبيان القادر الوصاف.

وهنالك روايات أخرى طويلة النفس، ضافية البيان، تشتمل على غرر الكلام وبدائعه الحسان ومناهج العرب الأولين في كلامهم، كحديث صلح الحديبية وحديث الإيلاء وغير ذلك، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبية، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين

والناقدين ، لأنها لم تدخل في دواوين الأدب ، ولأن تصورهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصناعة.

ويلي الحديث كتب السيرة ، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح ، ومثلت تلك اللغة البليغة التي كانت في عصور العربية الأولى وهذبها الإسلام ورققها ، واشتملت على قطع أدبية لا يوجد لها نظير في المكتبة العربية المتأخرة.

اقرا في سيرة ابن هشام حديث حليمة ابنة أبي ذويب السعدية عن رضاعة رسول الله ﷺ واقرأ فيها قصص الاضطهاد والتعذيب ، واقرأ فيها مغازي رسول الله ﷺ وحروبه ، واقرأ في كتب الحديث والشمائل ، وفي كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف والحلية تجد من القدرة الفائقة على الوصف والتعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوالج النفس وتر من اللغة النقية الصافية واللفظ الخفيف والتعبير الدقيق الرقيق ما يطربك ويملؤك سروراً ولذة وثقة وإيماناً بعبقرية هذه اللغة ، ورغبة في دراستها والتوسع فيها.

وهكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع وانتقلت ثروتها من جيل إلى جيل ومن كتاب إلى كتاب ، حتى جاء دور التأليف والتاريخ في القرن الثالث والرابع ، وحفظ لنا المؤرخون أمثال الطبري والمسعودي ، والأدباء ، أمثال الجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصبهاني ثروة زاخرة من الأدب في كتبهم وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التي كان العرب الصرحاء يتكلمون بها في بيوتهم وعلى موائدهم وفي مجالس انبساطهم ، وجاء منها الشيء الكثير في كتاب البخلاء للجاحظ وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية) ، وروضة العقلاء ونزهة الفضلاء وكتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وهذه كتب التاريخ

والأدب التي تمثل لنا العربية في جمالها الأول ونقائها الأصيل وسعتها النادرة.

ثم جاء دور المتكلفين المقلدين للعجم، ونبغ في العواصم العربية أمثال أبي إسحاق الصابي وأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عبّاد، وأبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وأبي العلاء المعري، واخترعوا أسلوباً للكتابة والإنشاء هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسال وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع، وغلب عليهم السجع والبديع وغلوا في ذلك غُلوّاً أذهب بهاء اللغة ورواءها وقيد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدت حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله.

وتزعم هؤلاء الأدب العربي واحتكروه وخضع لهم العالم العربي الإسلامي لنفوذهم وعلو مكانتهم تارة، وللانحطاط الفكري والاجتماعي الذي كان يسود على العالم الإسلامي أخرى. وأصبح أسلوبهم للكتابة هو الأسلوب الوحيد الذي يحتذى ويقلد في العالم الإسلامي.

وجاء أبو القاسم الحريري فألف المقامات ـ وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختمر ـ وقد تهيأت لقبولها فعكف عليها العالم الإسلامي دراسة وشرحاً وتقليداً وحفظاً، وتغلغلت في مدارس الفكر والأدب، وبقيت مسيطرة على العقول والأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبي، وما ذاك لفضل الكتاب بل لأنه قد وافق هوى النفوس وصادف عصر الجمود والعقم الأدبي في العالم الإسلامي.

ثم جاء القاضي الفاضل ـ مجدد أسلوب الحريري وبالأصح مقلده ـ وهو وزير أعظم دولة إسلامية في عصرها، وكاتب سر أحب سلطان في عهده صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ومعيد مجد المسلمين ـ فانتشر

أسلوبه في العالم الإسلامي وحرص على تقليده الكتاب والمنشئون في أنحاء المملكة الإسلامية[1].

وهكذا بقي أسلوب وحيد يتحكم في العالم الإسلامي ويسيطر على الأوساط الأدبية وأصبح ما خلفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبي هو المعنى بالأدب العربي ، وجاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة وأمراء البيان وأصحاب الأساليب وقدموا ما كتبوه وعرضوه للدارسين والباحثين وقلد بعضهم بعضاً وتناقلوه ، وأصبحت كتب التاريخ والأدب نسخة واحدة وأصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، لا يستثنى منها إلا عبقريان اثنان ، أولهما ابن خلدون ، وثانيهما الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[2] (م١١٦٧هـ).

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم وانصرف الناس ـ حتى الباحثين منهم ـ عن ذخائر الأدب العربي الثمينة ، ولم يفكر أحد في أن يبحث التاريخ والسِّيَر والتراجم وفي مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تفوق ـ في قوتها وحيويتها ، وسلاستها وسلامتها وفي بلاغتها وجمال لغتها ـ على دواوين أدبية ومجاميع ورسائل أكب عليها الناس وافتتنوا بها.

هذا وقد بقيت طائفة من العلماء ـ حتى في عصور الانحطاط الأدبي ـ غير خاضعين لأسلوب تقليدي في عصرهم ، متحررين من السجع والبديع والصنائع والمحسنات اللفظية يكتبون ويؤلفون في لغة عربية نقية وفي أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة ، إذا قرأه الإنسان ملكه الإعجاب وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقررونه. وهذه القطع التي طويت في أثناء كتب علمية أو دينية فجهلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربي الأصيل ، وهي التي عاشت بها العربية هذه السنين الطوال

---

(١) ظهرت نماذجهم في الكتاب لقيمتها الفنية ولأنها تمثل دوراً من تاريخ الأدب العربي.

(٢) اقرأ كتابه الفريد «حجة الله البالغة» ، واقرأ ترجمة مؤلفه في «نزهة الخواطر» الجزء السادس ، طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند).

وهي التي يفزع إليها المتأدب المتذوق وهي رياض خضراء في صحراء العربية القاحلة التي تمتد من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون.

إن ما كتب هؤلاء العلماء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الإنشاء هو الذي يسعد العربية ويشرفها أكثر مما يسعدها ويشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب وتكلفوا الإنشاء لفسدت كتابتهم وفقدت ذلك الرونق وتلك العذوبة التي تمتاز بها كتابتهم وخسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هي المفسدة له، الطامسة لنوره، فلا بد فيه من السجع والصناعة ولا بد فيه من البديع والمحسنات اللفظية ولا بد من تقليد من يعد في الطبقة الأولى من الأدباء، أما الكتابات العلمية التاريخية أو الدينية فليست فيها هذه الالتزامات وهذه الشروط القاسية فتأتي أبلغ وأجمل.

ونرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعاً أدبياً وتكلف الإنشاء تدلى وأسفَّ، وتعسف وتكلف، ولم يأت بخير، وإذا استرسل في الكلام وكتب في موضوع علمي أو ديني أحسن وأجاد، هكذا نرى الزمخشري متكلفاً مقلداً في «أطواق الذهب» وكاتباً موفقاً بليغاً في مقدمة «المفصل» وفي مواضع من تفسيره «الكشاف»، ونجد ابن الجوزي غير موفق في كتابه «المدهش» وكاتباً مترسلاً بليغاً في كتابه «صيد الخاطر»، وظني أنهما كانا يعتبران أثريهما الأدبيين «أطواق الذهب» و«المدهش» من أفضل كتاباتهما الأدبية التي يعتمدان عليها ويفتخران بها ولعل عصرهما صفق لهذين الكتابين الأطواق والمدهش أكثر مما صفق لكتاباتهم العلمية والأدبية والدينية. ولكن قاضي الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل. وليس اليوم للكتابين الأولين قيمة كبيرة. أما صيد الخاطر وتلبيس إبليس والمفصل والكشاف فهي جديرة بالبقاء جديرة بكل اعتناء.

ليس السر في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرر من السجع والبديع وترسلها فحسب بل السبب الأكبر هو أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم. أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق أو لإرضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع أو حُبّاً للظهور والتفوق، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان وكالفرق بين النائحة والثكلى.

ويذكرني هذا قصة روينا في الصبا وهي أن كلباً قال لغزال: مالي لا ألحقك وأنا من تعرف في العدو والقوة؟ قال: لأنك تعدو لسيدك وأنا أعدو لنفسي.

وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتنثال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر كتابتهم في نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب.

أما هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين قد يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره، وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر، وقد يمثلون السعيد وقد يمثلون الشقي من غير أن يذوقوا لذة السعادة أو يكتووا بنار الشقاء، وقد يعزُّون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه.

بالعكس من ذلك اقرأ كتابات الغزالي في «الإحياء» وفي «المنقذ من الضلال»، واقرأ خطب عبد القادر الجيلي (رضي الله عنه) ما صح منها، واقرأ ما كتبه القاضي ابن شداد عن صلاح الدين، واقرأ ما كتبه شيخ

الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهما ترَ مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً ، وذلك هو الأدب الحيّ الخليق بالبقاء ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة .

وهنالك شيء آخر وهو أن الإيمان وصفاء النفس والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس ولطافة نفس وعذوبة روح ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك بارعة في التصوير لذلك كان من الأدب الصوفي وفي كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مر العصور والأجيال. وترى من ذلك نماذج في كلام السادة الحسن البصري وابن السَّمَّاك والفضيل بن عياض وابن عربي الطائي تعد من محاسن العربية ، واقرأ ـ على سبيل المثال ـ الحوار الذي دار بين ابن عربي ونفسه وسجله في كتابه «رسالة روح القدس» .

إن هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرة غير قليلة في المكتبة العربية إذا جمعت تكونت منها مكتبة لكنها منثورة مبعثرة في هذه المكتبة مطوية مغمورة في أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها في ركن الأدب والإنشاء في مكتباتنا العربية ولا يذكرها المؤرخون للأدب في كتبهم ، هذه القطع أصدق تمثيلاً للغة العربية وأدبها الرفيع ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب ومن كثير من المجاميع والرسائل والمقامات والمقالات الأدبية التي تعتبر أساس الأدب وزهو العربية ومحصول العقول .

وهذه القطع هي التي تخدم اللغة والأدب ، أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب وهي التي تفتق القريحة وتنشط الذهن وتقوّي الذوق السليم وتعلم الكتابة الحقيقية .

إن هذه القطع والنصوص منثورة كما قلت في كتب الحديث والسيرة

والتاريخ وكتب الطبقات والتراجم والرحلات وفي الكتب التي ألفت في الإصلاح والدين والأخلاق والاجتماع ، وفي بحوث علمية ودينية ، وفي كتب الوعظ والتصوف وفي الكتب التي سجل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم ، وملاحظاتهم وانطباعاتهم ، ورووا فيها قصة حياتهم .

هذه ثروة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة ، وقد جنى هذا الإهمال على اللغة والأدب وعلى الكتابة والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير ، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير .

مخطىء من يظن أن المكتبة العربية قد استنفدت وعصرت إلى آخر قطراتها ، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات ومغامرات ، إنها لا تزال بكراً جديدة تعطي الجديد وتفجأ بالغريب المجهول ، إنها لا تزال فيها ثروة دفينة تنتظر من يحفرها ويثيرها .

إن مكتبة الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد وإلى دراسة جديدة وإلى عرض جديد .

ولكن هذه الدراسة وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيء كبير من الشجاعة وإلى شيء كبير من الصبر والاحتمال وإلى شيء كبير من رحابة الصدر وسعة النظر فالذي يخوض فيها ليخرج على العالم بتحف أدبية جديدة وذخائر عربية جديدة ، ينبغي ألا يكون ضيق التفكير ، جامداً متعصباً في فهمه للأدب ، متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر ، تهوله ضخامة العمل ، واتساع المكتبة العربية ، أو يوحشه عنوان ديني أو يمنعه ـ من الاختيار والدراسة ـ اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء ، يجب أن يكون حر التفكير ، واسع الأفق بعيد النظر متطلعاً إلى الدراسة والتجربة واسع الاطلاع على الكنوز القديمة يفهم الأدب في أوسع معانيه ويعتقد أنه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهم مؤثر لا-غير .

إنني لا أزدري كتب الأدب القديمة ـ من رسائل ومقامات وغيرها ـ ولا أقلل قيمتها اللغوية والفنية وأعتقد أنها مرحلة طبعية في حياة اللغات

والآداب ، ولكنني أعتقد أنها ليست الأدب كله وأنها لا تحسن تمثيل أدبنا العالي الذي هو من أجمل آداب العالم وأوسعها ، وأنها جنت على القرائح والملكات الكتابية ، والمواهب والطاقات وعلى صلاحية اللغة العربية ومنعت من التوسع والانطلاق في آفاق الفكر والتعبير والتحليق في أجواء الحقيقة والخيال ، وتخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقرية والأدب الغني فترة غير قصيرة فخير لنا أن نعطيها حظها من العناية والدراسة ونضعها في مكانها الطبعي في تاريخ الأدب وطبقات الأدباء ، وأن ننقّب في المكتبة العربية من جديد ونعرض على ناشئتنا وعلى الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة للأدب العربي حتى يتذوق جمال هذه اللغة وينشأ على الإبانة والتعبير البليغ ، ويتعرف بهذه المكتبة الواسعة ويستطيع أن يفيد منها.

على هذا الأساس ، وعلى هذه الفكرة ألفنا كتابنا ، «مختارات من أدب العرب» وها هو الجزء الأول من هذا الكتاب يجمع بين الطبعي والفني ـ ولكل قيمة أدبية ـ ويجمع بين القديم والحديث ، نرجو أن يقع من الأدباء والمعلمين موقع الاستحسان والقبول.

وقد عنيت بترجمة أصحاب النصوص ، وأشرت إلى مكانتهم الأدبية ، وما تمتاز به القطعة التي اقتبست من كتاباتهم الكثيرة ، وأدبهم الجم ، ليستعين به المعلمون في تربية الذوق الأدبي ، ومعرفة الفضل لأصحابه.

وشكري واعترافي لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي[١] معتمد دار العلوم ندوة العلماء والدكتور السيد عبد العلي الحسني[٢] مدير ندوة العلماء والأستاذ محمد عمران خان الندوي الأزهري عميد دار العلوم

---

(١) توفي إلى رحمة الله تعالى لثلاث عشرة خلون من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ ـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣م.

(٢) توفي إلى رحمة الله تعالى في ٢٢ ذي القعدة ١٣٨٠هـ ـ الموافق ٧ مايو ١٩٦١م.

سابقاً الذين كان لتشجيعهم وإتاحتهم للفرص فضل كبير في تأليف هذا الكتاب ، عام ١٣٥٩هـ ، وتقريره للدارسة في دار العلوم ندوة العلماء ، كما كان لحضرات الأساتذة الشيخ محمد حليم عطا[١] مدرس الحديث الشريف في دار العلوم ، والأستاذ الكبير السيد طلحة الحسني[٢] معلم الكلية الشرقية في لاهور سابقاً ، والأستاذ محمد ناظم الندوي أستاذ آداب اللغة العربية في دار العلوم سابقاً ، والأستاذ عبد السلام القدوائي الندوي أستاذ التاريخ والسياسة في دار العلوم سابقاً ، توجيهات وآراء سديدة ، ومساعدات غالية ، وشكري وتقديري للأستاذ عبد الحفيظ البلياوي ، الذي ساعد المؤلف وتناول الكتاب بالشرح الغريب وإيضاح الغامض؛ توفي إلى رحمة الله في ١٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩١هـ المصادف ١٠ أغسطس ١٩٧١م.

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على خير خلقه وخاتم رسله سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

لعشر خلون من ربيع الأول ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

١٣٩١هـ - ٦ مايو ١٩٧١م

* * *

(١) كانت وفاته يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٥٥م.

(٢) المتوفى ٢٢ رجب ١٣٩٠هـ - الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠.

عبادُ الرّحمٰن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا[١] ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً[٢] لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا[٣] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا[٤] ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟[٥] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا[٦] ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا[٧] ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا[٨] ﴿٦٩﴾ إِلَّا

---

(١) مضيئاً.

(٢) أي هذا خلفاً من هذا يقال «هن يمشين خِلْفَة» أي تذهب هذه وتجيء هذه.

(٣) أي بسكينة ووقار.

(٤) ما ينوب الإنسان من شدة ومصيبة.

(٥) لم يضيِّقوا.

(٦) وسطاً.

(٧) عذاباً وعقوبة.

(٨) ذليلاً حقيراً.

مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ (١) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٢) ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ (٣) رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا (٤) ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة الفرقان: ٦١-٧٧]

* * *

(١) الباطل والشرك بالله.

(٢) من يؤتم أي يقتدى به ج أيمة وأئمة.

(٣) لا يبالي بكم.

(٤) ملازماً.

سيّدنا موسى
على نبينا وعليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ[١] مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا[٢] فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا[٣] يَسْتَضْعِفُ[٤] طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ[٥] نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ[٦] فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ[٧] ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ[٨] إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ[٩] وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

(١) الخبر ج أنباء.
(٢) تجبر وتكبرّ.
(٣) جمع شيعة وهي الفرقة.
(٤) أي يجعل ضعيفاً.
(٥) يستبقي.
(٦) أي نجعل لهم سلطاناً وقدرة.
(٧) يتحرزون.
(٨) ألهمنا.
(٩) البحر.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ (١) ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ (٢) إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا (٣) عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ (٤) فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ (٥) وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾
وَلَمَّا بَلَغَ (٦) أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ (٧) ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ
ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ
عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ (٨) مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا
مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا (٩)

---

(١) لقطه أي أخذه بلا تعب.

(٢) أي خالياً من كل شيء سوى موسى (كما روى ابن عباس) أو خالياً من الحزن.

(٣) قوينا يقال ربط الله على قلبه: قواه وصبَّره

(٤) اتبعي أثره.

(٥) البعيد.

(٦) يقال بلغ فلان أشده أي قوته وفي القرآن حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة والأشُد بفتح الهمزة وضم الشين (كما في القرآن) والأشُد بضمهما القوة وهو جمع لاواحد له أو واحد جاء على بناء الجمع.

(٧) يقال استوى الرجل أي انتهى شبابه وبلغ أشده.

(٨) بابه ضرب، ضربه بجمع الكف.

(٩) المعين.

لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ[1] فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ[2] قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ[3] مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ[4] بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ[5] يَأْتَمِرُونَ[6] بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ[7] مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[8] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا[9] قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ[10] الرِّعَاءُ[11] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى

---

(١) ينتظر.

(٢) يستغيثه..

(٣) الضال والمنقاد للهوى.

(٤) بطش به فتك..

(٥) أشراف القوم.

(٦) ائتمروا وتآمروا تشاوروا.

(٧) يقال جلس تلقاءه أي تجاهه.

(٨) تدفعان وتطردان غنمهما عن الماء.

(٩) شأنكما.

(١٠) يرجع مأخوذ من الصدور وهو الرجوع عن الماء ويقابله الورود وهو الإتيان إلى الماء.

(١١) جمع راع.

ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ(١) فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة القصص: ١ـ٢٨]

* * *

(١) جمع حجة أي السنة.

جوامع الكلم[١]

لسيدنا ومولانا محمد[٢] رسول الله ﷺ

أما بعد[٣] فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق[٤] العرى كلمة التقوى ، وخير الملل[٥] ملة إبراهيم ، وخير السنن[٦] سنة محمد ﷺ ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها[٧] وشر الأمور محدثاتها[٨] ، وأحسن الهدي[٩] هدي الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير

(١) من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الكلمات الجامعة.

(٢) سيدنا محمد رسول الله ﷺ أفصح العالمين لساناً ، وأبلغهم بياناً اجتمع له من صفات البليغ وخلال البيان من سليقة وبيئة وخلق وذوق وصفاء حس وتمكن لسان وميراث أدب وموهبة حكمة ما لم يجتمع لأحد قبله ولا يجتمع لأحد بعده ، زد على ذلك أن لسانه مجرى الوحي فكان مرتعاً بعد السيل ، وحدِّث عن خضرته ونباته ، كان مطاع اللفظ ، مثقف اللسان ، فياض الخاطر جميل المذهب ، سهل اللفظ ، إماماً مجتهداً صاحب معجزات وآيات في اللسان العربي.

(٣) مبني على الضم لقطعه عن الإضافة.

(٤) المحكم. والعرى جمع عروة وهي من الإبريق ونحوه مقبضه والعروة ما يوثق به وما يعول عليه.

(٥) جمع ملة وهي الشريعة.

(٦) جمع سنة وهي الطريقة.

(٧) جمع عازمة وأمر عازم أي معزوم عليه.

(٨) جمع محدث وهو ما لم يكن معروفاً في كتاب ولا سنة ولا إجماع.

(٩) السيرة.

العلم ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى[١] وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبرا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا[٢] ، وأعظم الخطايا اللسان الكذوب[٣] ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما وقر[٤] في القلوب اليقين ، والارتياب[٥] من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول[٦] من جثاء[٧] جهنم ، والكنزكي[٨] من النار ، والشعر من مزامير[٩] إبليس ، والخمر جُمَّاع[١٠]الإثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعِظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمِّه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع ، والأمر بآخرته ، وملاك[١١] العمل خواتمه[١٢] ، وشر الروايا[١٣] رواياالكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق

---

(١) شغل.
(٢) بالفتح ترك ما يلزمك تعهده ، وبالضم الكلام القبيح.
(٣) الكثير الكذب والمراد به ههنا الكاذب.
(٤) ثبت بابه ضرب.
(٥) ارتاب من الشيء أي شك فيه.
(٦) السرقة من مال الغنيمة.
(٧) جمع جثوة وهو الشيء المجموع وما جمع من نحو تراب فاستعير للجماعة.
(٨) إحراق الجلد بحديدة محماة أو نحوها.
(٩) جمع مزمار وهو الذي يزمر فيه.
(١٠) ككتاب بالكسر والتخفيف ، وبالضم والتشديد مجتمع أصل كل شيء.
(١١) بفتح الميم وكسرها قوام الأمر.
(١٢) جمع خاتم وهو عاقبة كل شيء.
(١٣) جمع رويَّة وهو ما يروي الإنسان في نفسه من القول والفعل وقيل جمع راوية للرجل الكثير الرواية وقيل جمع رواية أي الذين يروون الكذب.

وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومنَ يتأل[١] على الله يُكذِّبه ، ومن يَغفر يغفر الله له ومن يعف الله عنه ، ومن يكظم الغَيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرَزِيَّة يعوضه الله ، ومن يتبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، استغفر الله لي ولكم[٢].

* * *

(١) يحلف.

(٢) البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عقبة بن عامر الجهني.

الخطابة المعجزة

عن أبي سعيد الخدري قال لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا الكبار في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد[١] هذا الحي[٢] من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة[٣] ، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومَه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء[٤] الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً[٥] في قبائل العرب. ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي! قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»[٦] قال: فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردَّهم ، فلما اجتمعوا أتى سعد ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي

(١) وَجَد يجِد وجداً وجِدة وموجدة ووجداناً عليه أي غضب.
(٢) البطن من بطون العرب ج أحياء.
(٣) القول الفاشي في الناس خيراً كان أو شراً.
(٤) الغنيمة ج أفياء وفيوء.
(٥) جمع عظيم.
(٦) الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الماشية فيقيها البرد والريح ج حظائر.

من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

«يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجدَةٌ[١] وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله بي ، وعالةً[٢] فأغناكم الله بي ، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا : الله ورسوله أمنُّ وأفضل! ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟! قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل! قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُم : ولَصُدِّقتم أتيتَنا مكذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولاً[٣] فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك[٤] ، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ[٥] من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضَوْن يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاء[٦] والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم فو الذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً[٧] ووادياً وسلكت الأنصار شِعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها .

الأنصار شعار[٨] والناس دثار[٩] ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

---

(١) السخط والغضب .

(٢) جمع عائل أي الفقير .

(٣) الذي تُرك نصرته وإعانته ج مخاذيل بابه نصر .

(٤) آسى مواساة الرجل في ماله أي جعله أسوته فيه .

(٥) نبت ناعم في أول ما يبدأ ، ومنه إنما الدنيا لعاعة أي أنها كالنبات الأخضر لا بقاء لها .

(٦) جمع شاة .

(٧) بالكسر الطريق في الجبل ومسيل الماء في بطن أرض وما انفرج بين الجبلين ج شِعَاب .

(٨) بالفتح والكسر وهو اللباس الذي يلي شعر الجسد وهو كناية عن البطانة من الناس والخاصة ج أَشعِرَة وشُعُر .

(٩) بالكسر الثوب الذي يستدفأ به من فوق الشعار .

قال: فبكى القوم حتى أخضَلوا[١] لحاهم[٢]، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحَظّاً[٣].

* * *

(١) خضَّل وأخضل الشيء ندَّاه وبلَّه.
(٢) جمع لحية أي شعر الخدين والذقن.
(٣) زاد المعاد

في بَني سَعْـد

كانت حليمة بنت أبي ذُؤَيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته تحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير[١] ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمسُ الرُّضعاء[٢] ، قالت: وذلك في سنة شهباء[٣] لم تُبْق لنا شيئاً ، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء[٤] ، معنا شارف[٥] لنا ، والله ما تبضُّ[٦] بقطرة ، وما نَنام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغديه (قال ابن هشام): ويقال يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفَرَج فخرجت على أتاني تلك فلقد أدَمتُ[٧] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً[٨] حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منَّا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ ، فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا

---

(١) يقال إن اسمه عبد الله بن الحارث.

(٢) جمع رضيع وهو الراضع.

(٣) أي سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

(٤) وهي ما لونها البياض إلى الخضرة يقال حمار أقمر وأتان قمراء.

(٥) المسنة الهرمة من النوق.

(٦) تسيل قليلاً قليلاً.

(٧) أي أطلت عليهم المسافة تمهلهم عليها مأخوذ من الشيء الدائم وفي سائر الأصول «اذمت» وأذمت الركاب أعيت وتخلفت عن جماعة الإبل ولم تلحق بها يريد أنها تأخرت بالركب أي تأخر الركب بسببها.

(٨) هزالاً.

نرجو المعروفَ من أبي الصبي ، فكنّا نقول يتيم ، وما عسى أن تصنع أمه وجدُّه ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأةٌ قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاقَ قلتُ لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه ، قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت : فذهبت إليه فأخذتُه ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره قالت : فلما أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي ، فلما وضعتُه في حجري[١] أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[٢] فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي واللهِ يا حليمةُ؟ لقد أخذتِ نسمةً مباركةً ، قالت : فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبتُ أتاني وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبي ليقلن لي ياابنة أبي ذؤيب! ويحك اربَعي[٣] علينا ، أليست هذه أتانك التي كنتِ خرجتِ عليها؟ فأقول لهن : بلى والله إنها لهي هي ، فيقلن : والله إن لها لشأناً ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليَّ . حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :[٤] ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن ، وتروح

---

(١) حضن الإنسان ج حجور .

(٢) أي ممتلئة .

(٣) اربعي بنا وهوِّني علينا .

(٤) جمع راعٍ .

غنمي شباعاً لُبَّناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلتُه ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتية حتى كان غلاماً جَفراً[١] قالت فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلَّمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا ، قالت : فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم[٢] لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتدُّ فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ ، فأضجعاه ، فشقّا بطنه ، فهما يسوطانه[٣] .

قالت : فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً[٤] وجهه . قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : ما لكَ يا بُني؟ ! قال : جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ فأضجعاني وشَقّا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو . قالت : فرجعنا به إلى خبائنا ، قالت : وقال لي أبوه : يا حليمة لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلامُ قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر؟ وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثه عندك . قالت : فقلت : قد بلغ الله يا بني وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه ، فأدّيته إليك كما تحبين . قالت : ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك . قالت : فلم تدعني[٥] حتى أخبرتها . قالت : أفتخوفت[٦] عليه الشيطان . قالت :

---

(١) غليظاً شديداً .

(٢) الصغار من الغنم واحدتها بهمة .

(٣) يقال : سطت اللبن ، أوالدم أو غيرهما ، أسوطه : إذا ضربت بعضه ببعض ، واسم العود الذي يضرب به : السوط .

(٤) أي متغيراً وجهه لأمر أصابه .

(٥) فلم تتركني .

(٦) أي خفت .

قلت: نعم. قالت: كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبُنيَّ لشأناً، أفلا أخبرك خبره. قالت: قلت: بلى. قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حَمْل قطّ كان أخفَّ عليَّ، ولا أيسرَ منه. ووقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض رافعٌ رأسه إلى السماء. دعيه عنك، وانطلقي راشدة[١].

* * *

(١) سيرة ابن هشام.

كيف هَاجَر النَّبي ﷺ

إن عائشة[١] زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويَّ قطُّ إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشيةً. فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى إذا بلغَ برك[٢] الغماد لقيه ابن الدُّغُنَّة ـ وهو سيد القارة[٣] ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض ، وأعبد ربي. قال ابن الدُغنَّة: فإن مثلكَ يا أبا بكر لا يخرُج ولا يُخرَج ، إنك تكسب المُعدم[٤] وتصل الرَّحم ، وتحمل الكلَّ[٥] وتقري[٦] الضَّيف وتعين على نوائب[٧] الحق ، فأنا لك جار ، ارجعْ واعبُدْ ربَّك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشيةً في أشراف قريش ، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرُجُ مثله

---

(١) حبيبة رسول الله ﷺ وبنت خليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه من أكبر فقهاء الصحابة ، عاشت خمساً وستين وأقامت في صحبته ﷺ ثمانية أعوام وخمسة أشهر ، توفيت في سنة ٥٧ وقيل في سنة ٥٨هـ.

(٢) موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.

(٣) قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة.

(٤) الفقير.

(٥) الثقل وهو من الكلال الذي هو الإعياء أي تعين الضعيف المنقطع.

(٦) قرى كضربِ قرى وقراء الضيف أضافه.

(٧) جمع نائبة أي المصيبة.

ولا يُخْرَج ، أتُخْرِجون رجلاً يكسب المُعدم ، ويَصلُ الرحم، ويحمل الكَل ، ويُقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذِّب[١] قريشُ بجوار ابن الدغُـنَّـة ، وقالوا لابن الدُغنَّة : مُرْ أبا بكر فليعبدْ ربه في داره فليصلّ فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربَّه في داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره .

ثم بدا لأبي بكر فابتنى[٢] مسجداً بفناء داره ، وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن فيتقـذَّف[٣] عليه نساءُ المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه . وكان أبـو بـكر رجلاً بـكَّاء لا يملك[٤] عينيه إذا قـرىء القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدُغنَّة ، فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهَه ، فإنْ أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يردّ إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك[٥] ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدُغُـنَّـة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إليَّ ذمتي . فإني لا أحبّ أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله .

---

(١) أي فلم تستطع أن تخالف .

(٢) أي بنى لنفسه .

(٣) أي يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر .

(٤) أي لا يستطيع إمساكهما عن البكاء .

(٥) الإخفار هو نقض العهد .

والنبيُّ ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين إني أريتُ دار هجرتكم ذات نخلٍ بين لابتين[١] وهما الحرَّتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة مَنْ كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهَّز[٢] أبو بكر قبل المدينة.

فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك[٣] فإني أرجو أن يؤذن لي. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف[٤] راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُرِ ـ وهو الخَبَط[٥] أربعة أشهر.

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة[٦] قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[٧] في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن فأذِن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج مَنْ عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُكَ بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة[٨] بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: نعم! قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين قال رسول الله ﷺ: بالثَمن.

---

(١) أي حرَّتين والحرة هي أرض ذات حجارة سود.
(٢) تجهز للسفر اتخذ لوازمه وتجهز للأمر تهيَّأ له.
(٣) الرسل والرسلة التمهل والتؤدة والرفق يقال على رسلك يا رجل أي على مهلك وتَأَنَّ.
(٤) علف الدابة أطعمها.
(٥) ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر.
(٦) حد انتصاف النهار ج ظهائر ونحر الظهيرة أول الزوال.
(٧) المغطي رأسه.
(٨) أي أريد المصاحبة وأطلبها.

قالت عائشة: فجهزنا أحثَّ[1] الجهاز، وصنعنا لهما سفرةً[2] في جِراب[3] فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها[4]، فربطت به على فم الجراب فبذلك سُمِّيت ذات النطاق، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكَمَنَا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقِف[5] لقن[6]، فيدَّلج[7] من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت[8] فلا يسمع أمراً يُكتادان[9] به إلا وعاه[10]، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، فيرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر منحة[11] من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسل[12]، وهو لبن منحتهما ورضيفهما[13] حتى ينعق[14] بها عامر بن فهيرة بغلس[15]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

---

(١) أي أسرعه.
(٢) طعام المسافر.
(٣) بالكسر وعاء من جلد ج أجرِبة وجُرُب وجُرْب.
(٤) شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض ج نُطُق.
(٥) الحاذق الفطن.
(٦) السريع الفهم.
(٧) أدلج الرجل إذا سار الليل في أوله وقيل في كله وادلج بالتشديد إذا سار في آخره.
(٨) كمن بات بمكة يظهر ذلك للكفار.
(٩) اكتاده اكتياداً احتال عليه ومكر به.
(١٠) وعى كضرب وعياً الحديث أي تدبره وحفظه.
(١١) شاة تحلب إناء بالغداة وإناء بالعشي.
(١٢) اللبن الطري.
(١٣) الرضيف والرضيفة اللبن الذي يغلي بالرضفة أي الذي طرحت فيه الحجارة المحماة.
(١٤) نعق كفتح نَعْقا ونَعيقاً ونُعاقاً ونَعَقاناً الراعي بغنمه صاح بها وزجرها.
(١٥) ظلمة آخر الليل ج أغلاس.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدُّئل ـ وهو من بني عبد بن عدي ـ هادَياً خرِّيتاً[١] ـ والخريت الماهرَ بالهداية ـ قد غمس[٢] حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فُهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل .

قال ابن شهاب وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المُدلجي وهو ابن أخي سُراقة بن مالك بن جُعشُم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جُعْشُم يقول : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالسٌ في مجلس من مجالس قومي بني مُدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقة إني قد رأيت آنفاً[٣] أسودة[٤] بالساحل أُراها محمداً أو أصحابه ، قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيتَ فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا[٥] ، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة[٦] فتحبسها عليَّ ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجِّه[٧] الأرض وخفضت

---

(١) الدليل الحاذق الذي يهتدي إلى آخرات المفاوز وهي مضايقها وطرقها الخفية ج خراريت وخرارات .

(٢) غمس كضرب غمساً أدخل ، يريد أنه كان حليفاً لهم وأخذ بنصيب من عقدهم وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيمانهم في دم أو خلوق أو نحوهما من شيء فيه تلوين فيكون ذلك تأكيداً للحلف .

(٣) أي من وقت قريب .

(٤) جمع سواد أي الشخص جج أساود .

(٥) أي في نظرنا معاينة .

(٦) قطعة أرفع قليلاً مما حولها ج أَكَم وأكمات جج آكام وأُكُم وأكام .

(٧) الحديد في أسفل الرمح .

عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرِّب[1] بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت[2] يدي إلى كنانتي[3] فاستخرجت منهاالأزلام[4] فاستقسمت بها أضُرُّهم أم لا؟ فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت[5] يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع[6] في السماء مثل الدخان ، فاستقسمتُ بالأزلام فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي ـ حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ـ أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزأني[7] ولم يسألاني إلا أن قال: أخفِ عنّا فسألته أن يكتب لي كتاب امن فأمر عامر بن فُهيرة فكتب لي في رقعة من أدَم[8] ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أنَّ رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تُجَّاراً قافلين[9] من الشام،

(١) التقريب سير دون العدو .

(٢) أي مددت يدي .

(٣) جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام ج كنائن وكنانات .

(٤) جمع زلم سهم لا ريش عليه وكان العرب في الجاهلية يستقسمون بها .

(٥) ساخ يسوخ سوخاً في الطين غاص فيه وغاب .

(٦) سطع كفتح سطعة وسطوعاً وسطيعاً الغبار أو الرائحة أو النور ارتفع وانتشر .

(٧) رزأ كفتح رَزْأً ورُزْأً ومرزِئة الرجل ماله أصاب منه شيئاً مهما كان أي نقصه .

(٨) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ ج آدَم وأدم وآدِمة وآدام .

(٩) قفل كضرب ونصر قفلا قفولاً رجع من السفر خاصة والقافلة الرفقة الراجعة من السفر أو المبتدئة به تفاؤلاً بالرجوع ج قوافل .

فكسا[١] الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض ، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة[٢] فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى[٣] رجلٌ من يهود على أطم[٤] من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين[٥] يزول بهم السراب[٦] فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب! هذا جَدّكم[٧] الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقّوا رسول الله ﷺ بظهر الحره فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو[٨] بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك . فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ[٩] عشرَة ليلة وأسّس[١٠] المسجد الذي أسِّسَ على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ . ثم ركب

---

(١) كسا يكسو كَسْوا الثوب فلاناً ألبسه .

(٢) أرض ذات حجارة سود .

(٣) أشرف وطلع .

(٤) القصر وكل حصن مبني بحجارة ج آطام .

(٥) اللابسين ثياباً بيضاً .

(٦) أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له وقيل أي ظهر حركتهم فيه للعين .

(٧) حظكم وصاحب دولتكم .

(٨) أي بقباء وكان نزوله ﷺ على كلثوم بن الهدم .

(٩) بالكسر والفتح ما بين الثلاث إلى التسع يقال بضع سنين وبضع عشرة من النساء وبضع وعشرون امرأة ومع المذكر بضعة عشر من الرجال وبضعة وعشرون رجلاً ويجب تقديم بضع فلا يقال عشرون وبضع .

(١٠) جعل أساساً .

راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت[1] عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربَدًا[2] للتمر لسُهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زُرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته هذا ـ إن شاء الله ـ المنزل .

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما[3] بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً. وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن[4] في بنيانه ويقول ـ وهو ينقل اللَّبِن ـ

هـذا الحمـالُ[5] لا حمـال خيبـرْ ‌ ‌ ‌ ‌ هـــذا أبـــرُّ ربّنـــا وأطهـــرْ

ويقول :

اللهـم إنّ الأجـر أجـر الآخـرهْ ‌ ‌ ‌ ‌ فـارحَـمِ الأنصـار والمهـاجِـرَهْ

فتمثل[6] بشعر رجل من المسلمين لم يُسَمَّ لي .

قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات[7] .

* * *

(١) برك كنصر بروكاً وتبراكاً البعير استناخ وهو أن يلصق صدره بالأرض .
(٢) الموضع الذي يجفف فيه التمر .
(٣) ساوم سواماً ومساومة بالسلعة غالي بها أي عرضها بثمن دفع المشتري أقل منه وهكذا إلى أن يتفقا على الثمن .
(٤) جمع لبنه أي المضروب من الطين مربعاً للبناء .
(٥) الحمال والحمل بمعنى أي ليس كحمل خيبر من التمر والثمر . وربَّنا بالنصب : منادى .
(٦) أي أنشد بيتاً .
(٧) الجامع الصحيح للبخاري الجزء الأول باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة .

ابتلاء كعب بن مالك رضي الله عنه

قال كعب: لم أتخلف[١] عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتَبْ أحدٌ تخلَّف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا[٢] على الإسلام وما أحبّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ وإن كانت بدر أذكَرَ في الناس منها.

كان من خبري: أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر[٣] حين تخلَّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلا ورَّى[٤] بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً[٥] وعدواً كثيراً فجلَّى[٦] للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة[٧] غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير،

---

(١) لم أتأخر.
(٢) تعاقدنا وتعاهدنا.
(٣) ذو غِنىً.
(٤) أراده وأظهر غيره.
(٥) بالفتح فلاة لا ماء فيها.
(٦) كشف وأوضح.
(٧) العُدَّة والجهاز وتأهب اهبته أي أخذ عدته وتجهز.

ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيَّب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال. وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي وأنا قادر عليه فلم يزل يتمادى[١] بي حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم. فغدوت بعدأن فصلوا لأتجهَّز ، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا ، وتفارط[٢] الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدَّر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً[٣] عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكاً فقال ـ وهو جالس في القوم بتبوك ـ ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سَلَمة: يا رسول الله! حبسه بُراده ونظره في عطفيه[٤]. فقال مُعاذ بن جَبَل: بئس ما قلت ، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجّه قافلاً ، حضرني همي ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سَخطه[٥] غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.

---

(١) يستمر.

(٢) تفارط الشيء تأخر وقته يقال تفارطت الصلاة عن وقتها إذا تأخرت عنه.

(٣) رجل مغموص عليه أي مطعون عليه في حسبه ودينه بابه ضرب وسمع.

(٤) عطفا الرجل جانباه ج أعطاف وعِطاف وعُطُوف.

(٥) ضد الرضى وقيل إنه لا يكون إلا من الكبراء والعظماء وبابه سمع.

فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح[١] عني الباطل وعرفت أني لن أخرجَ منه أبداً بشيء فيه كذبٌ فأجمعتُ[٢] صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم[٣] إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسم المُغضَب ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟ فقلت: بلى أني ـ والله ـ لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عَلَيَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد[٤] علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله.

لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وسار رجال من بني سَلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنتِ أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنبوني[٥] حتى أردتُ أن أرجع فأكذِّب نفسي، ثم قلت: لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع

---

(١) زال.

(٢) أي عزمت أن أصدق له.

(٣) جمع سريرة السر الذي يكتم، ما يسره الإنسان من أمره، النية.

(٤) أي تغضب عليَّ.

(٥) أي يلومونني أشد اللوم.

العَمْري وهلال بن أميَّة الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة[١] ، فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا- أيها الثلاثة -[٢] من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا[٣] وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم[٤] فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه[٥] النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرت[٦] جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ فسلَّمت عليه ، فوالله ما رد عليَّ السلام فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك[٧] بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال:- الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار. قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول:- من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان[٨] فإذا فيه:

---

(١) القدوة.

(٢) بالرفع بمعنى الاختصاص أي متخصصين من بين سائر الناس.

(٣) استكان استكانة: خضع وذل.

(٤) جلُد ككرم جَلَد أو جلادة وجلودة ومجلوداً كان ذا قوة وصبر وصلابة.

(٥) نظر الواحد منهما إلى الآخر اختلاساً بحيث لا يشعر غيرهما بذلك.

(٦) تسوَّر الحائط وعليه صعد عليه؟

(٧) نشده كنصر وضرب نَشْداً أو نِشداناً ونشدَه الله وبالله استحلفه أي سأله وأقسم عليه بالله.

(٨) اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ومنهم بنو جفنة.

أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضيعة فالحق بنا نواسك[١].

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيممت[٢] بها التنُّور[٣] فسجرته[٤] بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه - والله - ما به حَرَكة إلى شيء، واللهِ ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

فلبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللهَ قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى[٥] على جبل سلع بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك! أبشر. قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء

---

(١) المواساة لغة في آساه مؤاساة أي عاونه.

(٢) قصدت.

(٣) أنث الضمير على إرادة الصحيفة.

(٤) سجر كنصر سجر التنور أي ملأه وقوداً وأحماه.

(٥) أشرف وطلع.

فَرج ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشّرونّا وذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض[1] إليَّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما .

وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول[2] حتى صافحني وهنّأني . والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور : أبشِرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك .

قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال : لا بل من عند الله .

وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله! إن من توبتي أن انخلع[3] من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله . قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت : يا رسول الله! إن الله إنما نجّاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت . فو الله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن

(١) ركض كنصر ركضا الفرس برجليه استحثه للعدو .

(٢) هرول هرولة أسرع في مشيه .

(٣) أخرج .

مما أبلاني. وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً وأني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت.

وأنـــزل الله علـــى رســـول الله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ . . .﴾ إلى قوله: ﴿. . . وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩]. فو الله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1] [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

* * *

(١) حديث كعب بن مالك كتاب المغازي صحيح البخاري.

مقتَـل عُـمَر بن الخطّـاب رضـي الله عنـه

قال عمرو بن ميمون: إني لقائم ما بيني وبينه ـ يعني عمر ـ إلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما غداة أُصيب ، وكان إذا مرَّ بين الصفين قال: استووا ، حتى إذا لم ير فيهن خِللاً تقدم فكَّبر ، وربما قرأ بسورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبَّر فسمعته يقول:

قتلني أو أكلني الكلب.

حين طعنه فطار العِلج[1] بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طَعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة.

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً[2] ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول عمر رضي الله عنه يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقدَّمه (أي للإمامة) فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله

---

(١) بالكسر الرجل الضخم القوي من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموماً ج علوج وأعلاج وعِلجَة وهو هنا أبو لؤلؤة واسمه فيروز وكان مجوسياً

(٢) قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام وكل ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به.

سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال عمر:

يا ابن عباس! انظر من قتلني؟

قال: فجال (ابن عباس) ساعة ثم جاء فقال:

غلام المغيرة.

قال: الصَّنَع[١]؟ قال نعم.

قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً.

الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدّعي الإسلام، قد كنتَ أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوجُ بالمدينة[٢].

وكان العباس أكثرهم رقيقاً[٣] فقال ابن عباس رضي الله عنهما، إن شئت فعلت «أي إن شئت قتلنا».

قال: كذبت[٤] بعدما تكلّموا بلسانكم، وصلّوا قبلتكم، وحجّوا حجكم فاحتُمِلَ إلى بيته رضي الله عنه فانطلقنا معه، قال: ـ وكأنَّ الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول: ـ لا بأس.

وقائل يقول: ـ أخاف عليه.

فأُتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أُتي بلبن فشربه فخرج من جوفه، فعرفوا أن ميت.

فدخلنا عليه وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب

---

(١) بفتحتين وبالفتح والكسر وسكون النون حاذق في الصنعة ماهر في عمل اليدين.

(٢) كان عمر رضي الله عنه يكره كثرة سبايا الفرس في مركز الإسلام وعاصمة الخلافة ويحذر من اختلاطهم بالمسلمين وإفسادهم.

(٣) المملوك للواحد والجمع يقال عبد رقيق وعبيد رقيق وقد يجمع على أرقَّاء.

(٤) أي اخطأت.

فقال: ـ أبشر يا أمير المؤمنين! ببشرى الله ، لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ثم شهادة.

قال: وددت أن ذلك كان كفافاً[١] لا عليَّ ولا لي ، فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض فقال: ـ رُدُّوا عليَّ الغلام.

فقال يا ابن أخي! أرفع ثوبك فإنه أنقَى لثوبك ، وأتقى لربك.

ـ يا عبد الله بن عمر! انظر ما عليَّ من الدَّين؟

فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، قال إن وفى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي[٢] بن كعب فإن لم تفِ أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدُهم[٣] إلى غيرهم فأدِّ عني هذا المال.

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقل: يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لستُ اليومَ للمؤمنين أميراً ، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

قال: فسلَّم فاستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدةً تبكي ، فقال: ـ يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت: كنت أريده لنفسي ولأؤثرنّ به اليومَ على نفسي.

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء.

فقال: ـ ارفعوني فأسنده رجل إليه.

فقال: ـ ما لديك؟

قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت.

فقال: الحمد لله ، ما كان شيء أهمَّ إليَّ من ذلك ، فإذا أنا قُبضت

(١) أي مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان.
(٢) قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٣) لا تتجاوزهم.

فاحملوني ثم سلِّم فقل: ـ يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني فردُّوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها والنساء تسير معها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت[١] داخلاً[٢] لهم فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا:

أوص يا أمير المؤمنين! استخلف.

قال ما أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط[٣] الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

فسمى عليّاً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم وقال:

يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء (كهيئة التعزية له)[٤] فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر ، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة.

وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً ـ الذين تبوّؤوا[٥] الدار والإيمان من قبلهم ـ أن يقبل من محسنهم وأن يعفي عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم رِدء[٦] الإسلام وجباة[٧] المال وغيظ

---

(١) ولج يلج ولوجاً ولجة البيت وولج الشيء في غيره دخل فيه.
(٢) أي مدخلاً كان في الدار.
(٣) الرهط الجماعة دون العشرة.
(٤) أي قال له يشهدكم عبد الله بن عمر وقد قال له ذلك كهيئة التعزية له لأنه لما أخرجه من الخلافة أراد جبر خاطره بأن جعله من أهل المشاورة.
(٥) أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم.
(٦) أي الناصر.
(٧) جمع الجابي أي الجامع جبا كنصر وجبى كضرب الخراج أي جمعه.

العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادَّة[١] الإسلام أن يؤخذ من حواشي[٢] أموالهم وترد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل مَنْ وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم .

فلما قُبِضَ خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر .

قال : يستأذن عمر بن الخطاب ، قالت (أي عائشة) :

أدخلوه فأُدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه ، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن :

اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم .

قال الزبير : قد جعلت أمري إلى عليّ .

وقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان .

وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف .

فقال له عبد الرحمن : أيكما تَبرَّأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام[٣] لينظرن أفضلهم في نفسه .

فأُسكِتَ الشيخان ، فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليَّ؟ والله عليَّ أن لا آلو عن أفضلكم .

قالا : نعم .

فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن ولئن أمَّرتُ عثمان لتسمعنَّ ولتطيعن .

(١) المادَّة كل شيء يكون مدداً لغيره ويقال دع في الضرع مادة اللبن ، والأعراب مادة الإسلام.

(٢) جمع الحاشية وهي من صغار الناس والإبل لا كبار فيهم .

(٣) بالرفع فيهما والخبر محذوف أي عليه رقيب .

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان!

فبايعه فبايع له عليٌّ رضي الله عنه وولج أهل الدار[١] فبايعوه[٢].

* * *

(١) أي أهل المدينة وفي القرآن والذين تَبَوَّؤوا الدار والإيمان.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أخْـلاق المـؤمِـن

للحسن البصري[١]

هيهات هيهات ، أهلك الناس الأماني ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، ما لي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً . ، وأسمع حسيساً[٢] ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرَّموا ثم استحلُّوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب؟ قال: نعم! كذب ومالك يوم الدين ، إن من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحزماً في لين ، وإيماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم ، وكيساً في رفق ، وتجمُّلاً في فاقة ، وقصداً في غنى ، وشفقة في نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء في الحقوق ، وإنصافاً في استقامة ، لا يحيف[٣] على من يبغض ، ولا يأثم

---

(١) أبو سعيد الحسن أبي الحسن يسار البصري كان من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة زوجة النبي ﷺ وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه فدر عليه ثديها فشربه فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك . قال أبو عمرو بن العلاء ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقيل له فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن! ومولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة ويقال إنه وُلد على الرق وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومئة .

(٢) الصوت الخفي .

(٣) لا يظلم .

في مساعدة من يحب ، ولا يهمز[١] ، ولا يغمز[٢] ، ولا يلمز[٣] ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد[٤] الحق الذي عليه ،ولا يتجاوز في العذر ، ولا يشمت[٥] بالفجيعة[٦] إن حلّت بغيره ، ولا يسر بالمعصية إذا نزلت بسواه .

المؤمن في الصلاة خاشع ، وإلى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم ، إن أحسن استبشر ، وإن أساء استغفر ، وإن عتب استعتب[٧] ، وإن سفه عليه حلم ، وإن ظلم صبر ، وإن جير عليه عدل ، ولا يتعوذ بغير الله ، ولا يستعين إلا بالله ، وقور في الملأ ، شكور في الخلا ، قانع بالرزق ، حامد على الرخاء ، صابر على البلاء ، إن جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين ، وإن جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين .

هكذا كان أصحاب النبي ﷺ الأول فالأول ، حتى لحقوا بالله عز وجل ، وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وإنما غيّر بكم لما غيّرتم ثم تلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[٨] [الرعد : ١١] .

* * *

(١) لا يغتاب .
(٢) لا يطعن .
(٣) لا يعيب .
(٤) لا ينكر .
(٥) لا يفرح .
(٦) الرزيئة وهي المصيبة ج فجائع .
(٧) استرضاه .
(٨) سيرة الحسن البصري لعبد الرحمن ابن الجوزي .

إخـوَانُ الصّـفَـاء

لابن المقفع[١]

..... فبينما الغراب في كلامه إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى. فذُعرت[٢] منه السلحفاة فغاصت في الماء وخرج الجُرَذ[٣] إلى جُحره[٤] وطار الغراب فوقع على شجرة، ثم إن الغراب حَلَّق[٥] في السماء لينظر هل للظبي طالب؟ فنظر فلم ير شيئاً، فنادى الجرذ والسلحفاة، وخرجا، فقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر إلى الماء: اشرب إن كان بك عطَش، ولا تخف فإنه لا خوف عليك. فدنا الظبي فرحَّبت به السلحفاة وحَيَّته، وقالت له: من أين أقبلت؟ قال: كنت أسنح[٦] بهذه

(١) هو عبد الله بن المقفَّع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة نبغ في الكتابة في اللغتين الفارسية والعربية واستُكتب في عهد بني أمية وأسلم في عهد بني العباس وقُتل في عهد المنصور سنة ١٤٢. ابن المقفع أمة في الأدب والإنشاء صاحب طريقة في الكتابة عرفت به وأخذ عنه وهي طريقة سهلة جارية مع الطبع عامرة بالمعاني خفيفة اللفظ، للقلب والعاطفة فيها حظ قليل إلا ما كان تعبيراً عن وجدانه وتمثيلاً لأخلاقه كالصداقة والمروءة، والرجل آية في الترجمة لا تشم منها رائحة الترجمة ولا تميز النقل عن الوضع، وكتابه كليلة ودمنة الذي ترى أنموذجه في فصل إخوان الصفاء مثال خالد للترجمة.

(٢) دهشت بابه سمع.

(٣) نوع من الفأرج جرذان.

(٤) بالضم مكان تحتفره السباع والهوام لأنفسها ج أجحار وجِحَرة وَأجْحَرة.

(٥) ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة.

(٦) سَنَح الظبي والطير وغيرهما سنوحاً مرَّ من المياسر إلى الميامن ولكن المراد هنا أنه يرتع ويرعى.

الصَّحاري فلم تزل الأساورة[١] تطردني من مكان إلى مكان ، حتى رأيت اليوم شبَحاً[٢] ، فخفت أن يكون قانصاً[٣] . قالت: لا تخف فإنا لم نر ههنا قانصاً قط ، ونحن نبذل ودّنا ومكاننا ، والماء والمرعى كثيران عندنا فارغب في صحبتنا. فأقام الظبي معهم وكان لهم عريش[٤] يجتمعون فيه ، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار.

فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش ، غاب الظبي فتوقعوه ساعة ، فلم يأت ، فلما أبطأ أشفقوا أن يكون قد أصابه عنت[٥] فقال الجرذ والسلحفاة للغراب: انظر هل ترى مما يلينا شيئاً؟ فحلَّق الغراب في السماء ، فنظر ، فإذا الظبي في الحبائل مقتنصاً ، فانقضَّ[٦] مسرعاً فأخبرهما بذلك فقالت السلحفاة والغراب للجرذ: هذا أمر لا يرجى فيه غيرك فأغِث أخاك ، فسعى الجرذ مسرعاً فأتى الظبي فقال له: كيف وقعت في هذه الورطة[٧] وأنت من الأكياس[٨]؟ قال الظبي ، هل يغني الكيَس مع المقادير شيئاً؟ فبينما هما في الحديث إذ وافتهما السلحفاة ، فقال لها الظبي: ما أصبت بمجيئك إلينا: فإن القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجرذ الحبائل استبقته عَدْوَاً ، وللجرذ أجحار كثيرة ، والغراب يطير وأنت ثقيلة لا سعي لك ولا حركة ، وأخاف عليك القانص ، قالت: لا عيش مع فراق الأحبة وإذا فارق الأليف[٩] أليفه فقد

(١) جمع أسوار بالضم والكسر الرامي بالسهام.
(٢) الشخص ج شبوح وأشباح.
(٣) الصياد.
(٤) مكان يستظل به ج عرش.
(٥) الوقوع في أمر شاق.
(٦) هوى ليقع.
(٧) الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه ج ورطات ووِرَاط.
(٨) جمع كيِّس وهو الفطن الظريف.
(٩) المحب ج آلائف.

سُلِب فؤاده ، وحرم سروره وغُشِّي بصره ، فلم ينته كلامها حتى وافى القانص ، ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشَّرَك ، فنجا الظبي بنفسه ، وطار الغراب محلقاً ودخل الجرذ لبعض الأجحار. ولم يبق غير السلحفاة ودنا الصيَّاد فوجد حبالته مقطعة ، فنظر يميناً وشمالاً فلم يجد غير السلحفاة تدب. فأخذها وربطها فلم يلبث الغراب والجرذ والظبي أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة فاشتد حزنهم ، وقال الجرذ: ما أرانا نجاوز عقبة[١] من البلاء إلا صرنا في أشد منها ولقد صدق الذي قال: لا يزال الإنسان مستمراً في إقباله ما لا يعثر ، فإذ عثر لجَّ[٢] به العِثار ، وإن مشى في جَدَد[٣] الأرض: وحذري على السلحفاة خير الأصدقاء التي خِلَّتها ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة ، ولكنها خلّة[٤] الكرم والشرف خلة هي أفضل من خلة الوالد لولده خِلَّة لا يزيلها إلا الموت ، ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب ، ولا يدوم له شيء ، ولا يلبث معه أمر كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع ، ولا للآفل منها أفول[٥] لكن لا يزال الطالع منها آفلاً والآفل منها طالعاً ، وكما تكون آلام الكلوم[٦] وانتقاض[٧] الجراحات ، كذلك من قرحت كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم. فقال الظبي والغراب للجرذ: إن حذرنا وحذرك وكلامك وإن كان بليغاً كلُّ منها

---

(١) بفتحتين المرقى الصعب من الجبال ج عِقاب وعَقَبات.

(٢) تمادى.

(٣) الأرض الغليظة المستوية ج أجداد.

(٤) الصداقة.

(٥) أفل كضرب ونصر وسمع أفولاً القمر غابَ فهو آفل ج أُفَّل وأُفُول.

(٦) جمع كلم وهو الجرح.

(٧) يقال انتقض الجرح بعد برئه نكس أي عاود.

لا يغني عن السلحفاة شيئاً. وإنه كما يقال: إنما يختبر الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة كذلك يختبر الإخوان عند النوائب. قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب أيها الظبي! فتقع بمنظر من القانص كأنك جريح ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك وأسعى أنا فأكون قريباً من القانص مراقباً له لعله أن يرمي ما معه من الآلة ويضع السلحفاة ويقصدك طامعاً فيك، وراجياً تحصيلك، فإذا دنا منك ففِرَّ عنه رويداً بحيث لا ينقطع طَمَعه منك ومكِّنه من أخذك مرة بعد مرة حتى يبعد عنا وانح منه هذا النحو ما استطعت: فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة وأنجو بها، ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ، وتبعهما القانص فاستجرَّه[١] الظبي حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة، والجرذ مقبل على قطع الحبائل حتى قطعها ونجا بالسلحفاة، وعاد القانص مجهوداً[٢] لاغباً[٣] فوجد حبالته مقطعة ففكر في أمره مع الظبي المتظلع[٤] فظن أنه خولط[٥] في عقله، وفكر في أمر الظبي والغراب الذي كأنه يأكل منه، وقرض حبالته، فاستوحش من الأرض وقال: هذه أرض جن أو سَحَرة فرجع مُوَلِّياً لا يلتمس شيئاً ولا يلتفت إليه، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه.

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض، فالإنسان الذي قد أُعطي العقل والفهم، وأُلهم

---

(١) أي جرّه.

(٢) جهده الشيء أتعبه وأعياه.

(٣) لغب كفتح ونصر وكرم لغبا ولَغوبا ولغِب لَغَباً تعب وأعيا أشد الإعياء فهو اللاغب ج لُغَّب.

(٤) تظلّع أي أظهر أنه ظالع.

(٥) أي أصابه جنون.

الخيـر والشـر ، ومنـح التمييـز والمعـرفـة أولـى وأحـرى بـالتـواصـل والتعاضد[١] ، فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة[٢] .

❊ ❊ ❊

(١) التعاون .

(٢) من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع فصل الحمامة المطوقة .

وَصفُ الزاهِد

لابن السمَّاك[١]

قال ابن السماك حين مات داود الطائي[٢] : يا أيها الناس! إن أهل الدنيا تعجلوا غموم القلب وهموم النفس وتعب الأبدان مع شدة الحساب ، فالرغبة متعبة لأهلها في الدنيا والآخرة ، والزهادة راحة لأهلها في الدنيا والآخرة، وإن داود الطائي نظر بقلبه إلى ما بين يديه فأغشى بصَرُ قلبه بصرَ العيون، فكأنه لم يبصر ما إليه تنظرون وكأنكم لا تبصرون ما إليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون وهو منكم يتعجب ، فلما نظر إليكم راغبين مغرورين قد ذهبت على الدنيا عقولكم ، وماتت من حبها

(١) كان زاهداً عابداً ، حسن الكلام ، صاحب مواعظ. روى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره ، كوفي قدم بغداد زمن هارون الرشيد فمكث بها مدة ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣هـ (ابن خلكان).

(٢) هو داود بن نصير الطائي كان من الزهاد المعدودين شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه ثم اختار العُزلة والانفراد والخلوة فلزم العبادة وتعفف عن قبول عطايا الملوك. قيل إنه صام أربعين سنة ما علم به أهله ، قدم هارون الرشيد الكوفة فكتب قوماً من القراء وأمر لكل واحد منهم بألفي درهم ، وكتب داود الطائي من جملتهم فدعاه باسمه فقيل له إن داود لم يعلم ، فقال أرسلوها إليه فقال ابن السماك وحماد بن أبي حنفية نحن نذهب بها إليه ، وقال ابن السماك لحماد في الطريق انثرها بين يديه فإن للعين حظَّها ، رَجل ليس عنده شيء يؤمر له بألفي درهم يردَّها؟ فلما دخلا عليه نثراها بين يديه فقال لهما إنما يفعل هذا بالصبيان! وأبى أن يقبلها.
قال محارب بن دثار: لو كان داود في الأمم الماضية لقصَّ الله تعالى شيئاً من خبره ، توفي سنة ستين أو خمس وستين ومئة (ابن خلكان).

قلوبكم ، وعشقتها أنفسكم وامتدَّتْ إليها أبصاركم استوحش الزاهد منكم لأنه كان حياً وسط موتى .

يا داود! ما أعجب شأنك ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل ، أهنتَها وإنما تريد كرامتها ، وأذللتها وإنما تريد إعزازها ، ووضعتها وإنما تريد تشريفها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، وأجعتَها وإنما تريد شبعها ، وأظمأتها وإنما تريد رِيّها ، وخشنت الملبس وإنما تريد ليّنه ، وجشَّبت[1] المطعم وإنما تريد طيّبه ، وأمتَّ نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها قبل أن تعذب ، وغيَّبتها عن الناس كي لا تذكر ، وغبت بنفسك عن الدنيا إلى الآخرة فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت ، كان سيماك[2] في عملك وسرك ، ولم يكن سيماك في وجهك . فقهت في دينك ثم تركت الناس يفتون ، وسمعت الأحاديث ثم تركت الناس يحدثون ويروون ، وخرست عن القول وتركت الناس ينطقون ، ولا تحسد الأخيار ، ولا تعيب الأشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الإخوان هدية ، آنس ما تكون إذا كنت بالله خالياً ، وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جالساً ، فأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس ، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس ، جاوزت حد المسافرين في أسفارهم ، وجاوزت حد المسجونين في سجونهم ، فأما المسافرون فيحملون من الطعام والحلاوة ما يأكلون فأما أنت فإنما هي خبزتك أو خبزتان في شهرك ترمي بها في دن[3] عندك ، فإذا أفطرت أخذت منه حاجتك فجعلته في مطهرتك ، ثم صببت عليه من الماء ما يكفيك ثم اصطبغت به ملحاً فهذا إدامك وحلواك فمن سمع بمثلك صبر صبرك أو عزم عزمك وما أظنك إلا قد لحقت بالماضين ، وما أظنك إلا

---

(١) جشب الطعام إذا غلظ .
(٢) البهجة والحسن .
(٣) الدّن وعاء كالبرميل كبير .

قد فضلت الآخرين ، ولا أحسبك إلا قد أتعبت العابدين ، وأما المسجون فيكون مع الناس محبوساً فيأنس بهم وأنت فسجنت نفسك في بيتك وحدك فلا محدث وجليس معك ولا أدري أي الأمور أشد عليك الخلوة في بيتك تمر بك الشهور والسنون أم تركك المطاعم والمشارب ، لا ستر على بابك ولا فراش تحتك ، ولا قلة[١] يبرد فيها ماؤك ، ولا قصعة[٢] يكون فيها غداؤك وعشاؤك ، مطهرتك قلت: وقصعتك تورك[٣] وكل أمرك يا داود عجب ، أما كنت ، تشتهي من الماء بارده ولا من الطعام طيبه ولا من اللباس لينه ، بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت وما أيسر ما فعلت في جنب ما أملت ، أما أنت فقد ظفرت بروح العاجل وسعدت ـ والله ـ في الآجل ، عزلت الشهرة عنك في حياتك لكي لا يدخلك عجبها ، ولا يلحقك فتنتها ، فلما مت شهرك ربك بموتك وألبسك رداء عملك فلو رأيت اليوم كثرة تبعك عرفت أن ربك قد أكرمك[٤]

* * *

(١) الجرَّة العظيمة .

(٢) الصحفة .

(٣) إناء صغير .

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ـ

بينَ السيّدة زبيدَةَ والمأمون

من السيدة زبيدة[١] :

كل ذنب يا أمير المؤمنين! وإن عظم صغير في جنب عفوك ، وكل زلل وإن جَلَّ حقير عند صفحك ، وذلك الذي عوَّدك الله فأطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، ورفع بك الشر.

هذه رقعة الواله[٢] التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات لجميل الذكر ، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي وأن تصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً وفيه راغباً فافعل ، وتذكر مَنْ لو كان حياً لكان شفيعي إليك.

من المأمون :[٣]

(١) أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور العباسي وهي أم الأمين محمد بن الرشيد ، المرأة الفاضلة العريقة في المجد والشرف صاحبة معروف وحسنات على المسلمين ، إليها ينسب نهر زبيدة ، توفيت سنة ٢١٦هـ ورسالتها هذه تعبر عن حزن عميق مع احترام لائق لسدَّة الخلافة ومعرفة دقيقة للآداب السلطانية وهي مثال بليغ للإنشاء والتعبير في مثل هذا الموقف الحرج والمنازعة النفسية.

(٢) وله الرجل وَلَهاً حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله بابه ضرب وسمع.

(٣) هو أبو العباس عبد الله المأمون بن هارون الرشيد وُلد سنة ١٧٠هـ وتوفي سنة ٢١٨هـ كان من مفاخر بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وجمعاً للفضائل المنتشرة وحماية للعلم إلا أن فيه تسرعاً في الأحكام وقسوة في إنفاذها وتشيُّعاً للمعتزلة فلاسفة ذلك العصر. وجوابه هذا جواب مواساة وبر يجمع بين عزة الملوك وبر الأبناء وحلاوة التعزية وشيء من مرارة العتاب.

وصلت رقعتك يا أمَّاه! أحاطك الله وتولّاك بالرعاية ووقفت عليها وساءني - شهد الله - جميع ما أوضحت فيها لكن الأقدار نافذة ، والأحكام جارية ، والأمور متصرفة ، والمخلوقون في قبضتها لا يقدرون على دفاعها ، والدنيا كلها إلى شتات ، وكل حيٍّ إلى ممات ، والغدر والبغي حتف الإنسان ، والمكر راجع إلى صاحبه ، وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك ، ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين والسلام[١] .

* * *

(١) عصر المأمون .

بين قـاضٍ وَقـور ، وذبـاب جسُـور

للجـاحظ[١]

كان لنا بالبصرة قاض ، يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً زميتاً[٢] ركيناً[٣] ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك ، كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي[٤] ولا يتكىء ، فلا يزال منتصباً ، لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا تحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على أخرى ، ولا يعتمد على أحد شقَّيْهِ ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ثم يعود إلى

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ولد بالبصرة ونشأ بها ، وتخرج في جميع الفنون السائرة في عصره ، وضرب فيها بسهم وافر ، وصنّف وألف ، وجمع وكتب ، وراسل وأنشأ ، كان دميم الخلقة لطيف الروح ، ذكي الفؤاد ، فكه المحاضرة ، معتزلي العقيدة ، أما الكتابة فهو فيها نابغة العرب وإمام الصناعة ، صاحب أسلوب خاص ، هو أبو عذرته ، ويكاد يكون خاتمه ، تمتاز كتابته بسهولة العبارة وجزالتها وتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة ، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل ، والاستطراد ومزج الجد والهزل ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية ، وبعد ذلك كله تصوير المجتمع الذي يعيش الكاتب فيه وبيان أخلاق عصره وعوائدهم . ومن كتبه الشهيرة كتاب «البيان والتبيين» وكتاب «البخلاء» وكتاب «الحيوان» و«ديوان رسائل» . توفي سنة ٢٥٥هـ .

(٢) الزميت ، الجليل الوقور .

(٣) الركين ، الثابت الوقور الرزين .

(٤) احتبى الرجل جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك ، حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف ، فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب .

كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس إلاّ أن يتكلم ، ثم يوجز ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكبيرة .

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السماطين[١] بين يديه ، سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول إلى موق[٢] عينيه ، فرام الصبر على سقوطه على الموق ، وصبر على عضّته ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته[٣] أو يغضّن[٤] وجهه ، أو يذب بأصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى

(١) الصفين .

(٢) الموق ، مجرى الدمع من العين .

(٣) الأرنبة ، طرف الأنف .

(٤) غضن الشيء ، جعده وشنّجه .

موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه ، بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألجّ من الخنفساء[1] وأزهى[2] من الغراب ، قال: وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم أني عند نفسي وعند الناس من أرزن الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة[3]

* * *

(١) دويبة سوداء أصغر من الجعل ، كريهة الرائحة.

(٢) أكثر تكبّراً ، وأكثر تحركاً.

(٣) منقول من كتاب «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي. ٨١ ـ ٨٢.

القميصُ الأحمَر

لابن عبد ربه[١]

بينما المنصور في الطواف بالبيت ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: اللهُمَّ! إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فجزع المنصور فجلس بناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل فصلى ركعتين واستلم[٢] الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة. فقال المنصور: ما الذي سمعتُك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فو الله لقد حشوتَ[٣] مسامعي ما أمرضني. فقال: إن أمَّنتني يا أمير المؤمنين! أعلمتك بالأمور من أصولها وإلا احتجزتُ[٤] منك واقتصرتُ على نفسي فلي فيها شاغل. قال: فأنت آمن على نفسك فقل. فقال: يا أمير المؤمنين! إن الذي دخله الطمع، وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت. فقال: فكيف ذلك؟ ويحك يدخلني الطمع والصفراء[٥] والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي؟

---

(١) (٢٤٦/٣٢٨هـ) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي من كبار كتَّاب الأندلس والمؤلفين العرب وكتابه العقد الفريد ـ والقميص الأحمر مأخوذ منه ـ من كتب التاريخ والأدب الجليلة الممتعة التي تجمع علماً كثيراً.

(٢) أي مسح بالكف وقبَّل.

(٣) ملأت.

(٤) أي انعزلت عنك أو حبست ما عندي عنك.

(٥) أي الذهب والفضة.

قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك، إن الله استرعاك[١] أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجَصِّ والآجُرِّ وأبواباً من الحديد، وحُرَّاساً معهم السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، وبعثت عُمَّالك في جبايات الأموال وجمعها، وأمرت أن لا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلا فلانٌ وفلانٌ نفراً سمَّيتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف[٢] ولا الجائع العاري إليك، ولا أحدٌ إلا وله في هذا المال حق.

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيَّتك، وأمرت أن لا يُحجبوا دونك تَجبي الأموال وتجمعها، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخُونه. فائتمروا[٣] أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا. ولا يخرج لك عامل إلا خوَّنوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته عندك.

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظَمهم الناس، وهابوهم وصانعوهم[٤]، فكان أول من صانعهم عُمَّالُك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيَّتك. ثم فعل ذلك ذووالمقدرة والثروة من رعيَّتك لينالوا ظلم من دونهم. فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً. وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل. فإن جاء متظلِّم[٥] حيل بينك وبينه فإن أراد رفع قصَّته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم.

---

(١) أي جعلك راعياً.

(٢) الحزين ذهب له مال أو فُجع بحميم. المظلوم ينادي ويستغيث.

(٣) تشاوروا.

(٤) رشوا.

(٥) أي الشاكي من الظلم.

فإن جاء ذلك المتظلِّم فبلغ بطانتك[١] خبره ، سألوا صاحب المظالم أنّ لا يرفع مظلمته إليك ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ، ويلوذ[٢] به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه. فإذا أُجهد وأُخرج ثم ظَهَرْتَ صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً[٣] يكون نكالاً[٤] لغيره وأنت تنظر فما تنكر ، فما بقاء الإسلام؟

وقد كنت يا أمير المؤمنين! أُسافر إلى الصين فقدمتها مَرَّة وقد أصيب ملكهم بسمعه فبكى يوماً بكاء شديداً فحثه جلساؤه على الصبر فقال: أما إني لست أبكي للبليّة النازلة ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال: أما إذا قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب. نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلوماً.

فهذا يا أمير المؤمنين! مشرك بالله بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك. فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال. وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس له ولست الذي تعطي بل الله تعالى يعطي من يشاء ما يشاء.

فإن قلت: إنما تجمع المال لشَدِّ يدِ السلطان فقد أراك الله عبراً في بني أمَيَّة ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدُّوا من الرجال والسلاح والكُراع[٥] حين أراد الله بهم ما أراد.

---

(١) بطانة الرجل أهله وخاصته ج بطائن.

(٢) لاذ بالقوم التجأ إليهم وداناهم وعاذ بهم.

(٣) الشديد.

(٤) العبرة.

(٥) بضم الكاف اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.

وإن قلت: إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها فو الله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه. يا أمير المؤمنين! هل يعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ فقال المنصور: لا فقال: فكيف تصنع بالملك الذي خوَّلك[1] ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الأليم. قد رأى ما عقد عليه قلبك، وعملته جوارحك[2]، ونظر إليه بصرك، واجترحته[3] يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟

قال: فبكى المنصور ثم قال: ليتني لم أُخلق ويحك كيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن للناس أعلاماً[4] يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بهم في دنياهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك. وشاورهم في أمرك يسدِّدوك[5]. قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني. قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع[6] الظالم، وخذ الفيء والصدقات على حلِّها. واقسمها بالحق والعدل على أهلها وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة وجاء المؤذِّنون فآذنوه بالصلاة فصلى وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد[7]

* * *

---

(١) أعطاك.

(٢) جمع جارحة أي العضو من الإنسان ولا سيما اليد.

(٣) اكتسبته.

(٤) جمع عَلَم أي سيد القوم.

(٥) يرشدوك إلى الصواب.

(٦) قمعه كفتح قمعاً صرفه عما يريد وقهره وذلَّله.

(٧) العقد الفريد لابن عبد ربه.

كيـفَ كان مُـعَاويَـة رضي الله عنه يقضـي يَـومه[١]

للمسعودي[٢]

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات ، كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه . ثم يدخل فيُؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه . ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يُصلّي أربع ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويُحدّثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي . ثم يؤتى بالغداء الأصغر وهو فَضلة[٣] عشائه من جدي[٤] بارد أو فرخ وما يشبهه ثم يتحدث طويلاً . ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : يا غلام ! أخرج الكرسي فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة[٥] ويجلس على الكرسي ويقوم الأحداث فيتقدم إليه

---

(١) معاوية بن أبي سفيان من أصحاب رسول الله ﷺ وكُتَّاب الوحي ، مؤسس الدولة الأموية ومن نوابغ السياسيين الذين انجبتهم أرض الجزيرة كان عمر رضي الله عنه ينظر إليه ويقول هذا كسرى العرب ، كان جواداً وقوراً يضرب بحلمه المثل ، كان أحد كبار ملوك العالم في عصره لعشرين سنة ، توفي سنة ٦٠هـ .

(٢) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرِّخ الشهير ، نشأ في بغداد وساح البلاد إلى الهند والصين ومدا غسكر ، توفي سنة ٣٤٥ أو ٣٤٦هـ .

(٣) الفَضلة بفتح الفاء : البقية من الشيء .

(٤) ولد المعز في السنة الأولى .

(٥) أصغر من الدار ولا يدخلها إلا صاحبها ومقصورة المسجد مقام الإمام .

الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول: أعزوه[١] ويقول: عُدي عليَّ فيقول: ابعثوا معه ويقول: صُنع بي فيقول: انظروا في أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير. ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام. فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه؟ فيقول: بنعمة من الله ، فإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول: استُشْهِد فلان فيقول: افرضوا لولده[٢] ، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله ، فيقول: تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم.

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له: اجلس على المائدة ، فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً ، والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر فيقال: يا عبد الله أعقب[٣] فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم ، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ثم يرفع الغداء ويقال للناس: أجيزوا[٤] فينصرفون فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي أربع ركعات ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج[٥] من الأخبصة[٦]

---

(١) أعزَّه جعله عزيزاً.

(٢) فرض له في الديوان أي رسم له فيه شيئاً معلوماً وأثبت رزقه فيه.

(٣) عَقبَ وأعقب فلان فلاناً ومكان فلانٍ خَلَفَه وجاء بعدة.

(٤) أجاز الموضع خلَّفه وقطعه.

(٥) نوع من الأطعمة.

(٦) جمع خبيص وهو الحلوى

اليابسة والخشكنانج[١] والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد[٢] والكعك[٣] المنضَّد[٤] والفواكه اليابسة ، وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ويجلس إلى العصر ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الحوائج. ثم يرفع العشاء فينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ، ثم يصلي بعدها أربع ركعات ويقرأ في كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادي بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلي ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أراد وأصدر من ليلتهم ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكائدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ثم تأتيه الطرف[٥] الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم[٦].

* * *

---

(١) معرب لعله خشك نان.

(٢) الدقيق الأبيض.

(٣) خبز يعمل مستديراً من الدقيق والحليب والسكر أو غير ذلك والكلمة من الدخيل.

(٤) المضموم بعضه إلى بعض.

(٥) الهدايا الغريبة.

(٦) مروج الذهب للمسعودي.

استِقـامة الإمـام أحمـد بن حنبـل(١) وَكَرَمـه

.. لابن حبـان البستي (٢)

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ، الإمام أبو عبد الله الشيباني الذهلي ، إمام المسلمين ومن حبّه والدفاع عنه شعار أهل الدين ، ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ ، ونشأ على الصبر والقناعة ، وحفظ القرآن في صباه ، واتجه إلى الحديث اتجاهاً كلياً ، ورحل إلى بلاد كثيرة ، والتقى في رحلته إلى الحجاز مع الإمام الشافعي ، وأخذ عنه الفقه وأصوله ، ولقيه بعد ذلك ببغداد ، وعلا شأنه في الحديث وعلم الرواية ، حتى بلغ مبلغ الإمامة ، ورتبة الاجتهاد ، فكان يحفظ ألف ألف حديث ، وجلس للتّدريس والفتيا ، وكان إقبال الناس على مجالسه عظيماً ، وتخرّج عليه كبار الأئمة مثل الإمام البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبي داود.

وكان آية من آيات الله في الزهد والقناعة والتوكل ، والورع ، والتواضع ، والعزوف عن أموال السلطان ، ومكارم الأخلاق ، امتحن في الله ، وفي الدفاع عن السنة والعقيدة الصحيحة في فتنة الاعتزال أيام المعتصم ، وعذّب ما لم يعذّب إلاّ أفراد قلائل ، فصبر صبر الأبطال ، وثبت ثبات الجبال ، ثم امتحن بالصلات والعطايا ، والإجلال والتكريم أيام المتوكّل ، فاستقام استقامة الربّانيين ، والمتوكلين الزاهدين ، وانتصر للسنة ، وذاد عن الإسلام ، حتى قال علي بن المديني أحد أئمة الحديث في عصره : «إن الله أعزّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردّة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة» وقال قتيبة : «إذا رأيت الرجل يحبّ أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة».

كانت وفاته سنة ٢٤١هـ ، وصلّى عليه جمع كثير ، قال عبد الوهاب الورّاق ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله ، ومن مؤلفاته الشهيرة مسنده.

(٢) هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، هو عربي الأصل ، نشأ في بست ـ مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ـ وكان مكثراً من الحديث بالرحلة والشيوخ ، كَتَبَ عن ألف شيخ ، =

حكى ابن حبان البستي عن إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر ، قال: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء ، كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم ، فقال لي: دخلت يوماً على أحمد بن حنبل ، فإذا هو مغموم مكروب ، فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير! قلت: و مع الخير؟ قال: امتُحنت بتلك المحنة حتى ضُربت ثم عالجوني وبرئت ، إلا أنه بقي في صلبي موضع يوجعني ، هو أشدّ عليّ من ذلك الضرب ، قال: قلت: اكشف لي عن صلبك ، فكشف لي ، فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط ، فقلت: ليس لي بذي معرفة ، ولكن سأستخبر عن هذا ، قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بيني وبينه فضل معرفة ، فقلت له: أدخلُ الحبسَ في حاجة؟ قال: أدخل ، فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معي دُريهمات فرقتها عليهم وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي ، ثم قلت: من منكم ضرب أكثر؟ ، قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً ، وأشدهم صبراً ، قال: فقلت له: أسألك عن شيء ، قال: هات ، فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ، ضرب على الجوع للقتل سياطاً يسيرة ، إلاّ أنه لم يمت ، وعالجوه وبرأ ، إلا أنّ موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر ، قال: فضحك ، فقلت: مالك؟ ، قال الذي عالجه كان حائكاً وقلت: أيش الخبر؟ ، قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها ، قلت: فما

= ولي القضاء بسمر قند ، ثم بنسا ، قتله الخليفة بتهمة اتهم بها وهو في الثمانين من عمره ، وقيل مات حتف أنفه سنة ٣٥٤هـ ، وكان عالماً بالمتون والأسانيد ، وكان وعاء من أوعية العلم في اللغة والفقه ، والحديث والوعظ ، عارفاً بالطب والنجوم والكلام ، طبع من كتبه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» وهذا الفصل مأخوذ منه ، والقصة كما تدل على استقامة الإمام أحمد بن حنبل وصبره ، وكرم خلقه ، وحبه لرسول الله ﷺ وقرابته ، أنموذج طريف للغة العربية الفصحى ، والتعبير البليغ الذي كان منتشراً في القرن الثالث الهجري في بغداد قبل أن يفسده التكلف والعجمة.

الحيلة؟ قال: : يُبَطُّ[١] صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها ، وإن تُركت بلغت إلى فؤاده فقتلته . قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة ، قال: ومن يبطه؟ ، قلت أنا ، قال: أو تفعل؟ ، قلت: نعم ، قال: فقام ودخل البيت ثم خرج وبيده مخدّتان ، وعلى كفه فوطة[٢] ، فوضع إحداهما لي والأخرى له ، ثم قعد عليها ، وقال: استخر الله ، فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت: أرني موضع الوجع ، قال: ضع إصبعك عليه ، فإني أخبرك به ، فوضعت إصبعي وقلت: ههنا موضع الوجع؟ قال: ههنا أحمد الله على العافية ، فقلت ههنا؟ قال: ههنا أحمد الله على العافية، فقلت ههنا؟ قال: ههنا أسأل الله العافية ، قال: فعلمت أنه موضع الوجع. قال: فوضعت المبضع[٣] عليه ، فلمّا أحسّ بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول: اللهم اغفر للمعتصم ، حتى بططته ، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت العصابه[٤] عليه ، وهو لا يزيد على قوله: اللهم اغفر للمعتصم ، قال: ثم هدأ وسكن. ثم قال كأني كنت معلقاً فأحدرت ، قلت ، يا أبا عبد الله ، إن الناس إذا امتُحنوا محنةً دَعَوْا على مَنْ ظلمهم ، ورأيتك تدعو للمعتصم ، قال: إنّي فكرت فيما تقول ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، فكرهت أن آتي يوم القيامة وبيني وبين أحد من قرابته خصومة ، وهو منّي في حِلٍّ[٥] .

* * *

(١) بط يبط بطاً ، الجرحَ شقه .

(٢) الفوطة ، ما يأتزر به الخدم ج فوط ، وعند العامة: هي قطعة تنشّف بها الأيدي ، وتسمى أيضاً المنشفة.

(٣) المبضع: ج مباضع ، وهو آلة يشق بها الجلد ، وما شاكله .

(٤) العصابة: ما عصب به من منديل ونحوه ، ج عصائب .

(٥) روضة العقلاء .

أشعَب وَالبخيل

لأبي الفرج الأصبهاني(١)

حدث أشعب(٢) قال: ولي المدينة رجل من ولد عامر بن لُؤي وكان أبخل الناس وأنكدهم(٣). وأغراه الله بي يطلبني في ليله ونهاره . فإن هربت منه هجم على منزلي بالشُّرَط(٤) ، وإن كنت في موضع بعث إلى مَنْ أكون معه أو عنده يطلبني منه ، فيطالبني بأن أحدِّثه وأضحكه. ثم لا أسكت ولا أنام ، ولا يُطعِمني ولا يعطيني شيئاً. فلقيت منه جهداً عظيماً وبلاءً شديداً. وحضر الحج فقال لي: يا أشعب كن معي. فقلت بأبي أنت وأمي ، أنا عليل ، وليست لي نية في الحج. فقال: عليه وعليه

---

(١) هو أبو الفرج علي بن الحسين الأموي الشيعي العلامة الكاتب صاحب كتاب الأغاني ، كان اخبارياً نسابة شاعراً ، وكتاب الأغاني ذخيرة من ذخائر الأدب العربي ، ولولاه لضاع أدب وافر ولأصبحت نواح للغة العربية جميلة مطوية على غرّها ولحُرمنا تلك اللغة العذبة التي كان يتكلم بها أهل اللغة في منازلهم وعلى موائدهم وفي مواضع انبساطهم ، والكتاب على ما فيه من متعة أدبية ، وثروة لغوية ، تصوير قائم للمجتمع الإسلامي في القرون المشهود لها بالخير ، كأن لم يكن فيه إلا اللهو والمجون ، والتمتع بالحياة ، قد يشكك في حسن نيّة صاحبه وسلامة عقيدته ، توفي سنة ٣٥٦هـ ببغداد.

(٢) هو ابن الزبير واسمه شعيب وكنيته أبو العلاء ، وُلد سنة تسع من الهجرة ونشأ بالمدينة وكان من القراء حسن الصوت وكان مليحاً صاحب نوادر ، وكان شديد الطمع كثير الطلب يضرب به المثل ، وله نوادر وحكايات.

(٣) انكد المشؤوم العسر.

(٤) جمع شرطي (بضم الشين وسكون الراء) طائفة من أعوان الولاة وهم في أيامنا رؤساء الضابطة (البوليس).

وقال: إن الكعبة بيت النار، لئن لم تخرج معي لأودعنك الحبس حتى أقدم. فخرجت معه مكرهاً، فلما نزلنا منزلاً أظهر أنه صائم ونام حتى تشاغلت. ثم أكل ما في سفرته وأمر غلامه أن يطعمني رغيفين بملح. فجئت وعندي أنه صائم ولم أزل أنتظر المغرب أتوقع إفطاره. فلما صُلِّيَت المغرب قلت لغلامه: ما يُنتَظر بالأكل؟ قال: قد أكل منذ زمان. قلت: أو لم يكن صائماً؟ قال: لا. قلت: أفأطوِى[1] أنا؟ قال: قد أعدَّ لك ما تأكله فكُلْ. وأخرج إليَّ الرغيفين والملح، فأكلتهما وبت ميتاً جوعاً، وأصبحت فسرنا حتى نزلنا المنزل فقال لغلامه: ابتعْ لنا لحماً بدرهم. فابتاعه، فقال: كبِّب لي قطعاً. ففعل. فأكله ونصب القدر. فلما نغرت[2] أغرف لي فيها قطعاً ففعل فأكلها ثم قال: اطرح فيها دُقَّة[3] وأطعمني منها. ففعل. ثم قال: الق توابلها[4] وأطعمني منها. ففعل، وأنا جالس أنظر إليه لا يدعوني. فلما استوفى اللحمَ كلَّه قال: يا غلام، أطعم أشعبَ. ورمى إليَّ برغيفين، فجئت إلى القدر وإذا ليس فيها إلا مرق وعظام. فأكلت الرغيفين. وأخرج له جراباً فيه فاكهة يابسة، فأخذ منها حُفنة[5] فأكلها، وبقي في كفه كف لوز بقشره، ولم يكن له فيه حيلة. فرمى به إليَّ وقال: كل هذا يا أشعب. فذهبتُ أكسر واحدة منها فإذا بضرسي قد انكسرت منه قطعة فسقطت بين يديَّ. وتباعدتُ أطلبُ حَجَراً أكسرُ به فوجدتُه فضربت به لوزة فطفرت[6] ـ يعلم الله ـ مقدار رمية حجر. وعدوت في طلبها فبينا أنا في ذلك إذ أقبل بنو مصعب ـ يعني ابن

---

(١) طوى جاع ولم يأكل شيئاً، بابه سمع.

(٢) نغرت فارت، بابه ضرب وسمع وفتح.

(٣) الملح المبزَّر وهو ما خلط بالملح من الأبزار.

(٤) جمع تابل أي ما يطيب به من الغذاء من الأشياء اليابسة كالفلفل والكمُّون وأمثالهما.

(٥) ملء الكفين.

(٦) وثبت بابه ضرب.

ثابت وإخوته ـ يلبُّون بتلك الحلوق الجَهوَرية[١] . فصِحت بهم . الغوثَ

الغوثَ العياذُ بالله وبكم يا آل الزبير ، الحقوني أدركوني . فركضوا إليَّ فلما رأوني قالوا: أشعب ما لك ويلك؟ قلت: خذوني معكم تخلّصوني من الموت. فحملوني معهم فجعلت أرفرف[٢] بيديَّ كما يفعل الفرخ إذا طلب الزّقّ[٣] من أبويه. فقالوا: ما لكَ ويلكَ؟ قال: ليس هذا وقت الحديث ، زُقُّوني[٤] مما معكم قد مت ضرّاً وجوعاً منذ ثلاث قال: فأطعموني حتى تراجعت نفسي ، وحملوني معهم في محمل ثم قالوا: أخبرنا بقصّتك فحدثتُهم وأريتُهم ضِرْسي المكسورة فجعلوا يضحكون ويُصفِّقون وقالوا: ويلك من أين وقعتَ على هذا؟ هذا من أبخل خلق الله وأدنئهم نفساً. فحلفت بالطلاق أن لا أدخل المدينةَ ما دام له بها سلطان ، فلم أدخلها حتى عُزل[٥]

* * *

(١) المرتفعة العالية.

(٢) رفرف الطائر بسط جناحيه وحرّكهما.

(٣) ما يطعم الطائر فرخه بمنقاره.

(٤) زقّ الطائر فرخه أطعمه بمنقاره أي أسعفوني بشيء يسد رمقي.

(٥) الأغاني.

رسَـالـة عِتـاب

لأبي بكر الخوارزمي[١]

كتابي وقد خرجَت من البلاء خروجَ السيف من الجلاء ، وبروز البدر من الظلماء ، وقد فارقتني المحنة وهي مفارق لا يشتاق إليه ، وودعتني وهي مودع لا يُبكى عليه ، والحمد لله تعالى على محنة يجلِّيها ، ونعمة ينيلها[٢] ويوليها[٣] .

كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسلية ، واليوم بالتهنئة ، فلم يكاتبني في أيام البرحاء[٤] بأنَّها غمته ، ولا في أيام الرخاء[٥] بأنها سرَّته ، وقد

---

(١) (٣٢٣/ ٣٨٣هـ) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي أصله من طبرستان وَوُلِدَ بخوارزم ونشأ بها ، كان من المتكسّبين بالأدب ، الذين هاجروا وجاهدوا في سبيله ، اتصل بسيف الدولة والصاحب بن عبَّاد وعضد الدو لة. كان بحراً في الأدب راوية لأشعار العرب وأخبارها وأيامها نسَّابة لغوياً واقفاً على مناهج كلام العرب وخواص تراكيب اللغة ، ولكنه من طائفة الأدباء بالجبر الذين امتلكوا ناصية البيان وتصرَّفوا في ضروب الكلام بكثرة ما حفظوا وبطول ما مارسوا ، بغير قلم سيَّال ، وبيان سلسال ، وطبع ريان وذوق رقيق ، ورسائله شاهدة بذلك ، ولذلك أخفق في مساجلة بديع الزمان الهمذاني وهو الأديب بالطبع إخفاقاً عظيماً وكان ذلك سبب موته ، وشعره أحسن من نثره مع أنه لم يشتهر إلا برسائله السائرة الطائرة في الآفاق.

(٢) يعطيها.

(٣) أولاه معروفاً أي صنعه.

(٤) الشدة والأذى.

(٥) بالفتح سعة العيش.

اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي فقلت: ـ أما إخلاله[١] بالأولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها، وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفِّر[٢] عليَّ مرتبة السابق إلى الابتداء، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليَّ، ومحفوفة[٣] من كل رتبة بي.

فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الإحسان، وليكتب لي بالاستحسان، وإن كنت أسأت فليخبرني بعذره فإنه أعرف مني بسرِّه، وليرض مني بأني حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي وقلت: يا نفس! اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك فمع اليوم غد والعود أحمد[٤].

❋ ❋ ❋

---

(١) أخل بالشيء قصَّر فيه. تركه ولم يأت به.

(٢) يكثِّر.

(٣) حفَّه كنصر وضرب حفًّا بكذا أحاطه به.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي.

حَـديـثُ النـاس

لأبي حيان التوحيدي[١]

حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام قال: كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة ، وقد اشتعلت خراسان بالفتنة وتبلبلت[٢] دولة آل سامان بالجور وطول المدة ، فلجأ محمد بن إبراهيم صاحب الجيش إلى قايين وهي حصنه ومعقله ، وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة وعدة عميمة وزينة فاخرة وهيئة باهرة وغلا السعر وأخيفت السبل وكثر الإرجاف وساءت الظنون وضجت العامة والتبس الرأي

---

(١) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، وُلد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع ونشأ في بغداد، وجاء مفنناً في العلوم في النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة. كان مقتراً عليه في الرزق، وكان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة، ولم يزل في ضيق وجفاء من المعاصرين حتى أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها بزعمه وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعدَ موته.
قال الأستاذ كرد علي «كتب أبي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات، وتقريع وتقريظ، ونقد ولمز ووعظ وإرشاد، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلم والفهم، أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين، صور فيها العلم والأدب في أيامه أحسن صورة. . إنشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل في ما يكتب، ولا عني بالتنميق والتجسير، والصقل والتطرية. . كأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذي كاد يموت لموت الجاحظ، وأتمه بما حدث بعد أبي عثمان من فنون القول وضروب المعارف». ومن أشهر كتبه كتاب الصداقة والصديق، وكتاب المقابسات، وكتاب الإمتاع والمؤانسة وكتاب البصائر والذخائر، ومثالب الوزيرين، مات بشيراز سنة ٤١٤ هـ.

(٢) فسدت وهاجت.

وانقطع الأمل ونبح كل كلب من كل زاوية وزأر كل أسد من كل أجمة وضبح[١] كل ثعلب من كل تلعة[٢].

قال: وكنا جماعة غرباء نأوي إلى دويرة الصوفية لا نبرحها فتارة نقرأ، وتارة نصلي، وتارة ننام، وتارة نهذي، والجوع يعمل عمله، ونخوض في حديث آل سامان والوارد من جهتهم إلى هذا المكان، ولا قدرة لنا على السياحة لانسداد الطرق وتخطف الناس للناس وشمول الخوف وغلبة الرعب، وكان البلد يتّقد ناراً بالسؤال والتعرف والإرجاف بالصدق والكذب، وما يقال بالهوى والعصبية، فضاقت صدورنا وخبثت سرائرنا واستولى علينا الوسواس. وقلنا ليلة: ما ترون يا صحابنا ما دُفعنا إليه من هذه الأحوال الكريهة، كأنا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع، نخاف عليها الغارة والنهب وما علينا من ولاية زيد وعزل عمرو وهلاك بكر ونجاة بشر، نحن قوم رضينا في هذه الدنيا العسيرة وهذه الحياة القصيرة بكسرة يابسة وخرقة بالية وزاوية من المسجد مع العافية من بلايا طلاب الدنيا. فما هذا الذي يعترينا من هذه الأحاديث التي ليس لنا فيها ناقة ولا جمل ولا حظ ولا أمل قوموا بنا غداً حتى نزور أبا زكرياء الزاهد ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه ساكنين معه مقتدين به، فاتفق رأينا على ذلك. فغدونا وصرنا إلى أبي زكرياء الزاهد فلما دخلنا رحّب بنا وفرح بزيارتنا وقال: ما أشوقني إليكم وما ألهفني عليكم! الحمد لله الذي جمعني وإياكم في مقام واحد، حدثوني ما الذي سمعتم وماذا بلغكم من حديث الناس وأمر هؤلاء السلاطين؟ فرِّجوا عني وقولوا لي ما عندكم فلا تكتموني شيئاً فما لي والله مرعى في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم واقترن بخبرهم، فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد دهشنا واستوحشنا وقلنا في أنفسنا انظروا من أي شيء هربنا،

---

(١) صوَّت الثعلب وصاح.

(٢) ما علا من الأرض.

وبأي شيء علقنا وبأي داهية دُهينا قال: فخففنا الحديث وانسللنا فلما خرجنا قلنا: أرأيتم ما بلينا به وما وقعنا عليه؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٦]. ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضل وعبادة وعلم وتفرد في صومعته[١] حتى نقيم عنده إلى آخر النهار فقد نبا بنا المكان الأول، وبطل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل فمشينا إلى أبي عمرو الزاهد واستأذنا فأذن لنا ووصلنا إليه فسرَّ بحضورنا، وهشَّ لرؤيتنا وابتهج بقصدنا وأعظم زيارتنا، ثم قال: يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس؟ فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه ولم يدخل علي اليوم أحد فأستخبره وإن أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة فهاتوا ما عندكم وما معكم وقصوا علي القصة بفصها[٢] ونصها ودعوا التورية والكناية واذكروا الغث والسمين فإن الحديث هكذا يطيب ولولا العظم ما طاب اللحم ولولا النوى ما حلا التمر ولولا القشر لم يوجد اللب، فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا بالزاهد الأول وخاطفناه الحديث وودعناه وخرجنا، وأقبل بعضنا على بعض يقول: أرأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا؟ انظروا من أي شيء كان تعريجنا[٣] ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾[هود: ٧٢] وتلددنا[٤] وتبلدنا[٥]. وقلنا يا أصحابنا: انطلقوا إلى أبي الحسن الضرير وإن كان مضربه[٦] بعيداً فإنا لا نجد سكوننا إلا معه ولا نظفر بضالتنا إلا عنده لزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه مع زمانته[٧] في بصره وورعه وقلة فكره في الدنيا وأهلها، وطوينا

---

(١) جبل أو مكان مرتفع يسكنه المتعبد قصد الانفراد.

(٢) أصل الأمر وحقيقته.

(٣) عرَّج وقف ولبث.

(٤) تحيرنا.

(٥) تبلَّد أصبح بليداً أو تظاهر بالبلادة.

(٦) بيته.

(٧) الزمانة العاهة وعدم بعض الأعضاء.

الأرض إليه ودخلنا عليه وجلسنا حواليه في مسجده ولما سَمِعَ بنا أقبل على كلٍ واحد منا يلمسه بيده ويرحب به ويدعو له ويقرب ، فلما انتهى أقبل علينا وقال: أمن السماء نزلتم عليَّ؟ والله لكأني وجدت بكم مأمولي وأحرزت غاية سؤلي قولوا لي غير محتشمين[1]: ما عندكم من أحاديث الناس؟ وما عزم عليه هذا الوارد؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قايين وما الشائع من الأخبار؟ وما الذي يتهامس به ناس دون ناس؟ وما يقع في هواجسكم[2] ويستبق إلى نفوسكم؟ فإنكم بُرُد الآفاق وجوالة الأرض ولقَّاطة الكلام. ويتساقط إليكم من الأقطار ما يتعذر على عظماء الملوك وكبراء الناس: فورد علينا من هذا الإنسان ما أنسى الأول والثاني ، ومما زاد في عجبنا أنا كنا نعده في طبقة فوق طبقات جميع الناس فخففنا الحديث معه وودعناه وخنسنا[3] من عنده وطفقنا نتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم وظهر لنا من حالهم.. وازدريناهم[4] وانقلبنا متوجهين إلى دويرتنا التي غدونا منها مستطرقين[5] كالِّين[6] فلقينا في الطريق شيخاً من الحكماء يقال له أبو الحسن العامري وله كتاب في التصوف قد شحنه بعلمه وإشارتنا وكان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد واطلعوا على أسرار الله في العباد فقال لنا: من أين درجتم[7] ومن قصدتم؟ فأجلسناه في مسجد وعصبنا[8] حوله وقصصنا عليه قصتنا من أولها إلى آخرها ولم نحذف منها حرفاً فقال لنا في طيِّ هذه الحال الطارئة

---

(١) احتشم، انقبض أو استحيا.

(٢) خواطركم.

(٣) تأخَّرنا.

(٤) احتقرناهم.

(٥) استطرق الشيء اتخذه طريقاً.

(٦) متعبين.

(٧) درج مشى.

(٨) عصب القوم به اجتمعوا وأحاطوا به.

غيب لا تقفون عليه وسر لا تهتدون إليه وإنما غركم ظنكم بالزهاد وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة ، لأنهم الخاصة ومن الخاصة خاصة الخاصة لأنهم بالله يلوذون وإياه يعبدون وعليه يتوكلون وإليه يرجعون ومن أجله يتهالكون وبه يتمالكون ، قلنا له: فإن رأيت يا معلم الخير أن تكشف عنا هذا الغطاء وترفع هذا الستر وتعرفنا منه ما وهب الله لك من هذا الغيب لنكون شاكرين وتكون من المشكورين ، فقال: نعم أما العامة ، فإنها تلهج بحديث كبرائها وساستها ، لما ترجو من رخاء العيش وطيب الحياة وسعة المال ودرور[1] المنافع واتصال الجلب ونفاق السوق وتضاعف الربح. فأما هذه الطائفة العارفة بالله العاملة لله فانها مولَعة أيضاً بحديث الأمراء والجبابرة العظماء لتقف على تصاريف قدرة الله فيهم وجريان أحكامه عليهم ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارههم في حال النعمة عليهم والانتقام منهم ألا ترونه قال جل ثناؤه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[2] وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافي حكمته ويطلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته وههنا يعلمون أن كل ملك سوى ملك الله زائل وكل نعيم غير نعيم الجنة حائل[3] ويصير هذا كله سبباً قوياً لهم في الضرع إلى الله واللياذ بالله والخشوع لله والتوكل على الله وينبعثون به من حران[4] الإباء إلى انقياد الإجابة ويتنبهون من رقدة الغفلة ويكتحلون باليقظة من سنة السهو والبطالة ويجدون في أخذ العتاد واكتساب الزاد إلى المعاد ويعملون في الخلاص من هذا المكان الحرج بالمكاره المحفوف بالرزايا الذي لم يفلح فيه أحد إلا بعد

---

(١) ـ سيلانها وكثرتها.

(٢) أبلس انكسر وحزن ويئس من رحمة الله.

(٣) حائل أي متغيّر.

(٤) حرن بالمكان لم يبرح منه.

أن هدمه وثلمه[١] وهرب منه ورحل عنه إلى محل لا داء فيه ولا غائلة ، ساكنهَ خالد ومقيمه مطمئن والفائز به منعم والواصل إليه مكرمَ وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يضح لمن رفع الله طرفه إليه وفتح باب السر فيه عليه وقد يتشابه الرجلان في فعل. وأحدهما مذموم والآخر محمود وقد رأينا مصلياً إلى القبلة وقلبه معلّقٌ بإخلاص العبادة وآخر إلى جانبه أيضاً يصلّي إلى القبلة وقلبه في طرٍ[٢] ما في كُمِّ الآخر فلا تنظروا من كل شيء إلى ظاهره إلا بعد أن تصلوا بنظركم إلى باطنه فإن الباطن إذا واطأ الظاهر كان توحداً وإذا خالفه إلى الحق كان وحدة وإذا خالفه إلى الباطل كان ضلالة وهذه المقامات مرتبة لأصحابها وموقوفة على أربابها ليس لغير أهلها فيها نفس ولا لغير مستحقّها منها قبس.

قال الشيخ الصوفي: فوالله ما زال ذلك الحكيم يحشو آذاننا بهذه وما أشبهها ويملأ صدورنا بما عنده حتى سررنا وانصرفنا إلى متعشانا وقد استفدنا على يأس منا فائدة عظيمة لو تمنيناها بالغرم الثقيل والسعي الطويل لكان الربح معنا والزيادة في أيدينا[٣].

* * *

(١) أحدث فيه خللاً.

(٢) الطر الشق والقطع والمراد السرقة والطراورن الذين يسرقون ما في جيوب الناس.

(٣) الامتاع والمؤانسة.

فـي سَبيـل السَّعَـادة واليقِيـن

للإمام الغزالـي[١] رحمة الله عليه

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي[٢] عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، و أن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب عن الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس[٣] في العلائق وقد أحدقت[٤] بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مُهمة ، و لا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب بحجة الإسلام زين الدين الطوسي . من أئمة المسلمين وأعلام العلم والدين . وُلد سنة ٤٥٠ هـ وقرأ على علماء بلده وعلى إمام الحرمين وتخرَّج في مدة قريبة ، ووصل إلى أقصى ما يصل إليه عالم من المجد والسمو وانتهت إليه الرئاسة العلمية في بغداد ثم اعتزل التدريس وخرج في طلب السعادة واليقين حتى نالهما ثم عكف على العبادة والتربية وإفادة المسلمين ، من أشهر كتبه إحياء علوم الدين ، وأسلوب الغزالي طبعي قوي يتدفق بالحياة ، توفي سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) التباعد .

(٣) داخل .

(٤) أحاطت .

ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا [١] جُرُف[٢] هار[٣] وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمِّم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً وأقدِّم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى لا تصفو لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي الرحيل الرحيلَ ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل ، فإن لم تستعدّ الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فبعد ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنتَ لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص[٤] والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة فلم أزل أتردَّد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين و أربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ أقفل الله على لساني حتى اعتُقِل[٥] عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب مختلفة ، وكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة[٦] الطعام والشراب ،

---

(١) حرف كل شيء وحدُّه .

(٢) بضمتين ج جِرَفة وبسكون الراء ج أجرُف الجانب الذي أكله الماء من حاشية النهر .

(٣) هار يهور هوراً البناء انهدم فهو هائر ويقال أيضاً هارٍ على القلب كما في شاكي السلاح .

(٤) مرادف للتكدير .

(٥) اعتُقِل لسانه أي حُبِس عن الكلام .

(٦) أي الهناء .

فكان لا ينساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة وتعدَّى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم عن العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أورِّي[١] في نفسي سفر الشام حذراً من أن يطَّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً، واستهدفت[٢] لأئمة أهل العراق كافة إذ لم يكن فيهم من يجوِّز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك[٣] الناس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب عليَّ وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم فيقولون هذا أمر سماوي وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم.

ففارقت بغداد وفرَّقت ما كان معي من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف[٤] وقوت الأطفال ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه. ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة

---

(١) أي أريده وأظهر غيره.

(٢) أي صرت غرضاً يرمي عليَّ بالأقاويل.

(٣) اضطرب.

(٤) ما كفى عن الناس وأغنى.

والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصَّلته من علم الصوفية.

فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي. ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي. ثم تحركت فيَّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسِرت إلى الحجاز.

ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، وآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغيّر في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرِّقة لكني مع ذلك لا أقطع منها فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيِّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به[1].

* * *

(١) المنقذ من الضَّلال للغزَّالي.

وفاة السُلطان صلاح الدّين الأيّوبي[١]

للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد[٢]

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسِّلاً عليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل[٣]، ودخل ولده الملك

---

(١) هو أبو المظفر يوسف بن أيُّوب بن شادي الملقَّب بالملك الناصر، الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين وبيَّض وجوههم وردَّ غارة الصليبيين واستردَّ بيت المقدس بعدما بقي في أيدي النصارى تسعين سنة وخلَّص مصر من دولة العبيديين الملاحدة إلى غير ذلك من المفاخر والمآثر التي قلما اتفقت لغيره بعد عصر الراشدين، وُلِد سنة ٥٣٧ هـ ومات اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ، اقرأ ترجمته مفصَّلة في وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٢) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع، وُلِد بالموصل سنة ٥٣٩هـ وأتقن علوم الحديث والتفسير والأدب، كان من ندماء السلطان صلاح الدين وخواصه سمع السلطان منه الحديث وولاَّه قضاء العسكر والحكم بالقدس، ثم اتصل بعد وفاة السلطان بخدمة الملك الظاهر وحلَّ عنده في رتبة الوزارة، وكان السبب في قيام كثير من المدارس بحلب، ألَّف في سيرة السلطان صلاح الدين كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وهو خير مرجع في أحوال السلطان وسيره وأخلاقه، في عبارة منسجمة نقيَّة، توفي في صفر سنة ٦٣٧ هـ.

(٣) هو أبو علي عبد الرحيم البيساني العسقلاني، كان وزيراً لصلاح الدين ومدبِّر ملكه وصاحب سرِّه، توفي سنة ٥٩٦ هـ.



الأفضل[١] وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقة في الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل ، ولم يكن القاضي عادته ذلك ، فانصرف ودخلت أنا إلى الإيوان وقد مدَّ الطعام والملك الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً وبكى جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه . . ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردُّد طرفي النهار وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطي الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه ، وكان من أمارات انتهاء العمر إذ كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلَّت رطوبات بدنه ، وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف .

ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثانٍ فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات ، سبحان الله ! ألا يمكن أحداً تعديل الماء ، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، و الله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره ، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه .

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب فاشتد

---

(١) هو الملك الأفضل نور الدين علي، أكبر أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي، استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها بعد وفاة أبيه .

الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة[١] من الأسواق وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته. ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا عرفونا أحواله وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا.

ولما كان العاشر من مرضه حقن[٢] دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع[٣]، ثم أتينا إلى الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالاً فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وأنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه[٤] جبره الله تعالى أن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتفقده ثم خرج إلينا وذكر أن العرق سابغ، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وحارت في القوة الأطباء.

.. ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر وهي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الأمر في أوله وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة

---

(١) قماش البيت متاعه.

(٢) حَقَنَ المريض داواه بالحقنة.

(٣) الطائفة من الليل، أو نحو ثلثه وربعه.

(٤) هو الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين بن نجم الدين أيوب بن شادي أخو صلاح الدين الأيوبي توفي سنة ٥٧٦ هـ.

وابن الزكي[١] ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الأفضل وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة[٢] وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكَّره الشهادة وذكره الله تعالى ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في أحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ سمعه وهو يقول رحمة الله عليه ، صحيح ، وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك.

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته ووصلتُ وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه. ولقد حُكِيَ لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ تبسم وتهلَّل وجهه وسلمها إلى ربه. وكان يوماً لم يُصَب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم وما سمعت هذا

---

(١) هو أبو المعالي محيي الدين محمد بن أبي الحسن علي كانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية وكان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما تولى القضاء بدمشق، توفي سنة ٦٦٨ هـ.

(٢) الكلاسة حيّ خلف الباب الشمالي لصحن الجامع الأموي في دمشق.

الحديث إلا على ضرب من التجوُّز والترخص إلا في ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعمَّمين ، وكان يوماً عظيماً وقد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة من أن ينظر إلى غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلمَ فيه فاضل وواعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على هذا إلى ما بعد صلاة الظهر ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض[١] حتى في ثمن التبن الذي بلّت[٢] به الطين ، وغسله الدولعي الفقيه ، ونهضت إلى الوقوف على غسله فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر وأُخرِج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فُوط[٣] وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلِّ عرفه، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، فصلّى عليه الناس أرسالاً[٤]، وكان أول من أمَّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان وكان متمرِّضاً بها ، ودفن في الصُفَّة الغربية منها. وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه ونوّر ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزّى الناس فيه وسكّن قلوب الناس ، وكان قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب إلا حزين

---

(١) لأنه لم يخلف في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً وجرم واحد صوري وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن، ولم يخلف داراً ولا عقاراً.

(٢) بلّه بشيء من الماء.

(٣) الفُوطة ما يأتزر به الخدم، جمعه فُوَط.

(٤) الرسل الجماعة، القطيع من كل شيء، جمعه أرسال.

ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله. ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة إلا نحن، حضرنا وقرأنا وجددنا حالاً من الحزن.

واشتغل في ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب إلى عمه وإخوته يخبرهم بهذا الحادث. وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلّمَ المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ومراسلة إخوته وعمه:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام[1]

* * *

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد.

علوّ الهمَّـة

لعبد الرحمن بن الجوزي[١]

ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته. فإن من علت همته يختار المعالي، وقد لا يساعد الزمان، وقد تضعف الآلة، فيبقى في عذاب. وإني أعطيت من علو الهمة طرفاً فأنا به في عذاب، ولا أقول ليته لم يكن فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل. ولقد رأيت أقواماً يصفون علو هممهم، فتأملتها فإذا بها في فن واحد ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم، قال الرضي:

ولكـلِّ جسـمٍ فـي النُّحـول بليَّـةٌ   وبلاءُ جسمي من تَفاوتِ هِمَّتي

فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة. وكان أبو مسلم الخراساني في حال شبيبته لا يكاد ينام، فقيل له في ذلك فقال: ذهن صاف، وهمٌّ بعيد، ونفس تتوق[٢] إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج[٣] الرعاع[٤].

---

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن على الجوزي كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث والتاريخ وصناعة الوعظ صنف في فنون عديدة وكانت ولادته بطريق التقريب سنة ثمان وقيل عشر وخمسمئة وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧هـ ببغداد وله كتاب المنتظم في التاريخ، وتلبيس إبليس في نقد عصره، وصفة الصفوة، وسيرة عمر بن الخطاب وغير ذلك من الكتب النافعة.

(٢) تشتاق.

(٣) الرعاع من الناس الحمقى.

(٤) سفلة الناس.

قيل: فما الذي يبرِّد غليلك؟[١] قال: الظفر بالمُلك. قيل: فاطلبه، قال: لا يطلب إلا بالأهوال، قيل: فاركب الأهوال، قال: العقل مانع، قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعل من عقلي جهلاً، وأحاول به خطراً لا يُنال إلا بالجهل، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به، فإن الخمول أخو العدم[٢]. فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا به قد ضيَّع أهمَّ المهمات وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الولايات. فكم فتك وقتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا، ثم لم يتنعم في ذلك أكثر من ثمان سنين، ثم اغتيل[٣] ونسي تدبير العقل فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال.

وكان المتنبي يقول:

وفي الناس مَنْ يرضى بميسورِ عَيْشِهِ[٤] ومركوبُه رجلاه والثوبُ جِلدُه

ولكنَّ قَلْباً بين جَنْبيَّ ماله مدىً يَنْتَهي بي في مُرادٍ أحدُّه

ترى جسمَهُ يُكْسَى شُفوفاً[٥] تربه فيختارُ أن يُكْسى دروعاً تهده[٦]

فتأملت هذا الآخر فإذا نهمته[٧] فيما يتعلق بالدنيا فحسب. ونظرت إلى علو همتي فرأيتها عجباً. وذلك أنني أروم[٨] من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه، لأنني أحبُّ نيل كل العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء[٩] كل فرد. هذا أمر يعجز العمر عن بعضه، فإن عرض لي همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصاً في غيره. فلا أعدُّ همته تامة. مثل

---

(١) العطش الشديد.

(٢) العُدم والعُدُم والعَدَم الفقدان وغلب على فقدان المال والفقر.

(٣) أهلك وأخذ من حيث لا يدري.

(٤) ما تيسر وهو من المصادر التي جاءت على مفعول.

(٥) جمع شف بالفتح ويكسر، الثوب الرقيق.

(٦) هد البناء هدّاً وهدوداً هدمه شديداً.

(٧) حاجته.

(٨) أريد.

(٩) بلوغ الغاية.

المحدث فاته الفقه. والفقيه فاته علم الحديث. فلا أرى الرِّضى بنقصان من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة. ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى ورع بِشر[١] ، وزهادة معروف[٢] ، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيدٌ. ثم إني أروم الغنى عن الخلق، واستشرف الإفضال عليهم. والاشتغال بالعلم مانع من الكسب. وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية. ثم إني أتوق إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، لبقاء الخلفان[٣] نائبين عني بعد التلف. وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد. ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال، ثم لو حصل فرق جمع الهمة. وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود للترفه[٤] واللطف، وفي قلة المال مانع، وكل ذلك جمع بين أضداد. فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا. وأنا لا أحب أن يخدش حصول شيء من الدنيا وجه ديني بسبب. ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي. فواقلقي من طلب قيام الليل. وتحقيق الورع مع إعادة العلم. وشغل القلب بالتصانيف. وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم. ووا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم. ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة[٥] غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي، لأن عليان الهمة

---

(١) أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المروزي المعروف بالحافي كان من كبار الأولياء توفي سنة ٢٢٦ هـ.

(٢) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي كان من كبار الأولياء توفي سنة ٢٠٠ هـ.

(٣) جمع خلفة ما يبقى أو يتبع.

(٤) للتنعم.

(٥) عائلة الرجل أهل بيته الذين يعولهم.

تطلب المعالي المقربة إلى الحق عز وجل. وربما كانت الخِيَرة في الطلب دليلاً إلى المقصود. وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فائدة ، وإن بلغ همي مراده ، وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله[1].

* * *

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي.

سيّد التابعين سَعيد بن المسيِّب

لابن خلكان[١]

كان سعيد سيد التابعين ، من الطراز الأول[٢] جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سمع سعد بن أبي وقاص وأبا هريرة رضي الله عنهما.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لرجل سأله عن مسألة: ائتِ ذاك فسله ، يعني سعيداً ، ثم ارجع إليَّ فأخبرني ، ففعل ذلك وأخبره ، فقال: ألم أخبركم أنه أحد العلماء ، وقال أيضاً في حقه لأصحابه: لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسرَّه ، وكان قد لقي جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبي ﷺ ، وأخذ عنهن ، وأكثر روايته المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وكان زوج ابنته ، وسئل

(١) شيخ المؤرخين البارع في تصنيفه، شمس الدين أحمد الأربلي المعروف بابن خلكان، ولد سنة ٦٠٨هـ كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً، متفرِّداً في علم الأدب والتأليف، ولِّي قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة، وأفتى ودرَّس ودام بها نحو سبع سنين، ثم أعيد إلى قضاء دمشق وسُرَّ الناس بعوده، أعجب علماء التاريخ والمشرقيات بكتابه «وفيات الأعيان» واشتدَّت عنايتهم به لما يمتاز به من التحرير وغزارة المادة وكثرة الفوائد وحسن العبارة والاقتصاد في الوصف والبعد عن المبالغة، ومعرفة طبقات الناس وما يجيدونه من فنّ ويفوقون فيه، وهو نتيجة دراسات طويلة وخبرة واسعة، توفي سنة ٦٨١هـ.

(٢) الطراز كلمة فارسية عرِّبت وأصل معناها بالفارسية التقدير المستوى والمراد هنا من الشكول الجيدة الحسنة المتفوقة.

الزُّهري ومكحول: مَنْ أفقهُ مَنْ أدركتما؟ فقالا: سعيد بن المسيب، وروي عنه أنه قال: حججت أربعين حجة، وعنه أنه قال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة لمحافظته على الصف الأول، وقيل: إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة وكان يقول: ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله، ودعي إلى نيّف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال: لا حاجةَ لي فيها، ولا في بني مروان، حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم.

وقال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: هلا أخبرتَنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هلا أحدثت امرأة غيرها؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوّجني وما أملك إلاَّ درهمين أو ثلاثة؟! فقال: إن أنا فعلت تفعل؟ قلت: نعم ثم حمد الله تعالى وصلّى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو قال على ثلاثة، قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ وأستدين، وصليت المغرب، وكنت صائماً، فقدمت عشاي لأفطر، وكان خبزاً وزيتاً، وإذا بالباب يقرع، فقلت: مَنْ هذا؟ قال: سعيد، ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم ير منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت، وإذا بسعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له[1]، فقلت: يا أبا محمد، هلاَّ أرسلت إليَّ فآتيك؟ قال: لا، أنت أحقّ أن تُؤْتَى، قلت: فما تأمرني؟ قال: رأيتك رجلاً عَزَباً[2] قد تزوَّجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في الباب وردَّ الباب،

(١) أي: ظهر له رأي غير الذي رآه من قبل يريد أنه يريد أن يرجع.

(٢) بفتحتين من لا أهل له من الرجال والنساء جمعه عُزَّاب وأعزاب.

فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ، ثم صعدت إلى السطح ، فناديت الجيران ، فجاؤوني ، وقالوا: ما شأنك؟ فقلت: زوَّجني سعيد بن المسيب اليوم ابنته وقد جاء بها على غفلة ، وها هي في الدار ، فنزلوا إليها ، وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام ، فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج ، قال: فمكث شهراً لا يأتيني ولا آتيه ، ثم أتيته بعد شهر وهو في حلقته ، فسلمت عليه ، فردَّ عليَّ ولم يكلمني حتى انفض من في المسجد ، فلما لم يبق غيري ، قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: هو على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال: إن رابك شيء فالعصا ، فانصرفت إلى منزلي ، وكانت بنت سعيد المذكورة خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاَّه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه في يوم بارد ، وصبَّ عليه الماء. قال يحيى بن سعيد: كتب هشام بن إسماعيل والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان: إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيِّب ، فكتب أن اعرضه على السيف ، فإن مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة ، فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار[1] وعروة بن الزبير[2] وسالم بن عبد الله[3] على سعيد بن المسيب ، وقالوا: جئناك في أمر ،

(١) هو أبو أيوب سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج النبي ﷺ وأخو عطاء بن يسار وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً ثقة عابداً ورعاً حجة روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم ، وروى عنه الزهري وجماعة من الأكابر توفي سنة ١٠٧هـ.

(٢) هو عروة بن الزبير بن العوام أحد الفقهاء السبعة بالمدينة سمع خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وروى عنه ابن شهاب الزهري وغيره كانت ولادته سنة ٢٢هـ وتوفي سنة ٩٣هـ كان عبد الملك يقول: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير.

(٣) هو سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب أحد فقهاء المدينة ومن سادات التابعين وعلمائهم =

قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضُربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً ، فأعطنا إحداهن ، فإن الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب ، فلا تقل لا ولا نعم ، قال: يقول الناس: بايع سعيد بن المسيب ، ما أنا بفاعل ، وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم ، قالوا: فتجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياماً ، فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك ، قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذني ، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة ، ما أنا بفاعل ، قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك ، فإن لم يجدك أمسك عنك ، قال: أفَرَقاً من مخلوق؟ ما أنا بمتقدم شبراً ولا متأخر ، فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر ، فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه ، فلما صلّى الوالي بعث إليه ، فأُتي به ، فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك ، قال نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين ، فلما رآه لم يجب أخرج إلى السُدَّة[1] فمدت عنقه وسلت السيوف ، فلما رآه قد مضى أمر به فجرد ، فإذا عليه ثياب شعر ، فقال لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن ، فضربه خمسين سوطاً ، ثم طاف به أسواق المدينة ، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال: إن هذه لوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة ، ومنعوا الناس أن يجالسوه ، فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له: قم من عندي ، كراهية أن يضرب بسببه.

قال مالك رضي الله عنه: بلغني أن سعيد بن المسيب كان يلزم مكاناً من المسجد لا يصلي من المسجد في غيره ، وأنه ليالي صنع به عبد الملك ما صنع ، قيل له أن يترك الصلاة فيه ، فأبى إلا أن يصلي فيه.

وكان يقول: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكارٍ من

= وثقاتهم روى عن أبيه وغيره وروى عنه الزهري ونافع وتوفي في آخر ذي الحجة سنة ١٠٦ هـ.

(١) باب الدار وما حولها من الرواق جمعه سُدد.

قلوبكم ، لكي لا تحبط أعمالكم ، وقيل له ـ وقد نزل الماء في عينه ـ ألا تقدح عينك؟ قال: لا حتى على مَنْ أفتحها.

وكانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه ، وكان في خلافة عثمان رضي الله عنه رجلاً.

وتوفي بالمدينة سنة إحدى ـ وقيل: اثنتين ، وقيل: ثلاث ، وقيل: أربع ، وقيل: خمس ـ وتسعين للهجرة وقيل: إنه توفي سنة خمس ومئة والله أعلم[1].

* * *

(١) وفيات الأعيان . ٢ / ٣٧٥

النُبـوّة المحمَّديـة وآيـاتهَـا

للحافظ ابن تيمية[١]

وسيرة الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقُه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمتُه من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً من صميم[٢] سلالة[٣] إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبي من بعد إبراهيم إلا من ذريته ، وجعل له ابنين إسماعيل وإسحاق ، وذكر في التوراة هذا وهذا ، وبشر في التوارة بما يكون من ولد إسماعيل ولم يكن في ولد إسماعيل من ظهر فيما بشَّرت به النبوءات غيره ، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحرّاني ثم الدمشقي، وُلد في عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وتحول به أبوه من حران سنة ٦٦٧ هـ فسمع من ابن عبد الدائم والقاسم الإربلي والمسلم بن علان وابن أبي عمرو الفخر في آخرين ، وقرأ بنفسه وتفقّه وتمهر وتميَّز وتقدم وصنَّف ودرس وأفتى وفاق الأقران وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المعقول والمنقول والاطلاع على مذهب السلف والخلف، توفي ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ معتقلاً .

(٢) الصميم من كل شيء خالصه ومحضه .

(٣) النسل والولد.

منهم ، ثم من قريش صفوة بني إبراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة[١] قريش ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذي بناه إبراهيم ودعا الناس إلى حجِّه ولم يزل محجوجاً من عهد إبراهيم ، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف.

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، ولم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق وترك الفواحش والظلم وكل صنف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شيء يعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرت عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة.

وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمّياً من قوم أمّيّين لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ شيئاً من علوم الناس ولا جالس أهلها ولم يدَّع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله ، ولم يُعَرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ولا في عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به ولا من ظهر[٢]. كظهوره ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره ، ثم إنه اتبعه أتباع[٣] الأنبياء وهم ضعفاء الناس ، وكذَّبه أهل الرئاسة وعادوه وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم. والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم

(١) الصفوة بالتثليث من كل شيء خالصه وخياره.

(٢) غلب.

(٣) جمع تَبَع والتبع يطلق على الواحد والجمع.

إياها ، ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى ، وهم صابرون محتسبون لا يرتدُّون عن دينهم ، لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجُّها العرب من عهد إبراهيم ، فتجتمع في الموسم قبائل العرب ، فيخرج إليهم يبلِّغهم الرسالة ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذب وجفاء الجافي وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود ، قد سمعوا أخباره منهم وعرفوه فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإنَّ أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة ، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار ، أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم ، ثم أُذن له في الجهاد ، ثم أُمر به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان[1] ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم وأعدلهم ، وأفضلهم حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء.

---

(١) جمع كاهن وهو الذي يدعي معرفة الأسرار أو أحوال الغيب.

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين أمرين ، وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال مات ﷺ ولم يخلِّف درهماً ولا ديناراً ، ولا شاة ولا بعيراً ، إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً[١] من شعير ابتاعها لأهله ، وكان بيده عقار[٢] ، ينفق منه على أهله والباقي يصرفه في مصالح المسلمين ، فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه .

ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة ، شيئاً بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر بهِ ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ولم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع غيره ، وحرَّم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره .

وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب إلى الفضائل ، وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه .

---

(١) ستون صاعاً ج أوساق .

(٢) بالفتح الضيعة وكل ما له أصل وقرار كالأرض والدار .

وإذا نظر اللبيب[(١)] في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من ا لأمم ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم ، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً. وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوّات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيَّروا دين المسيح في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرؤون كتاباً بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويُقِرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به:
﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٧]
وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

(١) أي: العاقل ج أَلِبَّاء.

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١] [البقرة: ٢٨٥].

* * *

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

الظلم مؤذن بخراب العمران

لابن خلدون[١]

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرَّعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح

---

(١) (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ) وُلد هذا العالم الكبير في تونس ونشأ في حجر النعيم والعلم، وشارك في جميع العلوم وأتقنها وتعمَّق فيها وتبحَّر في التاريخ وتقلَّد الكتابة والحجابة والقضاء ووفد سنة ٧٦٤ هـ على الأندلس فاحتفى به الملوك والأمراء وانفرد به صاحب غرناطة دون وزيره فدبَّت إليه عقارب الحسد والحقد، فعاد إلى وطنه ثم أخذ يجول ويطوف في الأرض حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر وولي القضاء ثم انصرف عنها واعتزل ثم اشتغل واعتزل إلى أن وافاه أجله.
وقع الاتفاق على ابن خلدون إمام فلسفة التاريخ وأبو عذرتها، ومقدمتُه للتاريخ لم يعمل مثلها، ازدانت بها مكتبات العالم، ولا يزال الكتاب غضّاً جديداً في مباحث كثيرة، صادقاً في آراء ونظريات كثيرة. وابن خلدون إمام طريقة في الكتابة لا تزال مثالاً جميلاً للكتابة العلمية الرزينة، أسلوبه طبعي عامر محكم وهو مع ذلك رشيق متسق، وله في تجديد الكتابة ونقلها إلى الطور الحديث فضل كبير.

والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتفضت الأحوال وابذعرّ[١] الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة[٢] في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخفّ ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختلّ باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادّتها ضرورة.

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن المُوبَذان[٣] صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرَّض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له: أيها الملك إن المُلك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عزّ للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرَّب وجعل له قيِّماً وهو المَلِك. وأنت أيها الملك عمدت إلى الضِّياع فانتزعتها من أربابها وعُمَّارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة، فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف[٤] على من

---

(١) تفرّقوا.

(٢) مقاطعة أو إقليم والكلمة في الدخيل.

(٣) فقيه الفرس وحاكم المجوس كقاضي القضاة للمسلمين فارسية معرَّبة جمعه موابذة.

(٤) الجور والظلم.

بقي من أرباب الخراج وعُمَّار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلَّوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلَّت العمارة وخرِبت الضياع وقلَّت الأموال وهلكت الجنود والرعيَّة وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها ، فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتُزعت الضياع من أيدي الخاصة ورُدَّت إلى أربابها وحُمِلوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقَوِيت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور ، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحَسُنت أيامه وانتظم ملكه.

فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرِّب للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ، ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد في الأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب. واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم ليسيراً لأن النقص إنما يقع بالتدريج فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترقعه بجدتها وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر.

والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لابد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول. ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور. بل الظلم أعمُّ من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه.

فجباة الأموال بغير حقها ظَلَمة. والمعتدون عليها ظلمة. والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغُصَّاب الأملاك على العموم ظلمة. ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادَّتها لإذهابه الآمال من أهله. واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال ، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهمَّاً وأدلته من القرآن والسنَّة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر[١]

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون.

المدنيـة العجميّة عنـد بعثَـة الرسُول ﷺ

للشيخ ولي الله الدهلوي[١]

اعلم! أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا، ونسوا الدار الآخرة، واستحوذ[٢] عليهم الشيطان، تعمَّقوا في مرافق[٣] المعيشة، وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق

---

(١) (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) هو حكيم الإسلام وفيلسوفه المجدد الديني والعلمي الكبير قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي، قرأ العلم على والده وقرأ فاتحة الفراغ وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وأخذ يدرس ويفيد ويؤلف إلى أن رحل في سنة ١١٤٣ إلى الحجاز واستفاد من علمائها وأفاد وأسند الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدني ثم رجع إلى الهند وعكف على الدرس والإفادة والتأليف والتجديد في العلم والدين إلى أن استأثرت به رحمة الله.
كان رحمه الله آية من آيات الله عبقرياً نابغة من نوابغ الإسلام، قال العلامة السيد صديق حسن خان القنوجي أمير بوفال: ـ لو سبق به الزمان وكان في القرون المتقدمة لعد من كبار الأئمة المجتهدين في الإسلام (إتحاف النبلاء).
كان محدثاً مفسراً فقيهاً أصولياً متكلماً فيلسوفاً سياسياً، كان كاتباً قديراً بالعربية سيَّال القلم مؤلفاً مجيداً، وبعض كتبه لم ينسج على منوالها، خصوصاً الفوز الكبير في أصول التفسير وإزالة الخفاء في خلافة الخلفاء ورسالة الإنصاف في سبب الاختلاف. أما كتابه الشهير حجة الله البالغة فهو كتاب فريد في موضوعه وهو بيان حقائق الدين وتطبيق العقل والنقل وشرح النظام الديني والسياسي، وهذا الفصل مأخوذ منه.

(٢) غلب.

(٣) منافع.

يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل: إنهم كانوا يعيِّرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم ، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن[١] وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة[٢] وغلمان حسان ، ولا يكون له توسُّع في المطاعم ، وتجمُّل في الملابس وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم.

فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزَّع[٣] وتولَّد من ذلك داء عضال[٤] دخل في جميع أعضاء المدينة ، وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم[٥] وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه[٦] وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء[٧] لها.

وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة[٨] ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب[٩] على الفلاحين والتُجار وأشباههم ، والتضييق عليهم فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس[١٠]

---

(١) كلمة فارسية وهو ما يسميه العامة النافورة.
(٢) النشيطة الحادة القوية.
(٣) تقطع.
(٤) بالضم الشديد وداء عضال أي داء معيّ غالب.
(٥) فارسي معرب وهو سواد البلدة..
(٦) جمع تلبيب وهو من الإنسان ما في موضع اللبب من ثيابه واللبب موضع المنحر من كل شيء.
(٧) جمع الرجا أو الرَّجا الناحية لا أرجاء لها لا أطراف لها أي لا منتهى لها.
(٨) أي الكثيرة.
(٩) جمع ضريبة وهي التي تعين على أحد من المال.
(١٠) مصدر داس يدوس دوساً ودياسة الزرع درسه.

والحصاد ، ولا تقتنى[١] إلا ليستعان بها في الحاجات. ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك.

وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمه دينه ، ولم يكن ليحصل أيضاً إلا بقوم يتكسَّبون بتهيئة تلك المطاعم والملابس والأبنية وغيرها ويتركون أصول المكاسب التي عليها بناء نظام العالم وصار عامة من يطوف عليهم يتكلفون محاكاة الصناديد في هذه الأشياء وإلا لم يجدوا عندهم حظوة[٢] ولا كانوا عندهم على بال.

وصار جمهور الناس عيالاً على الخليفة يتكففون[٣] منه تارة على أنهم من الغزاة والمدبرين للمدينة يترسمون برسومهم ولا يكون المقصود دفع الحاجة ولكن القيام بسيرة سلفهم. وتارة على أنهم شعراء جرت عادة الملوك بصلتهم ، وتارة على أنهم زهاد وفقراء يقبح من الخليفة أن لا يتفقد حالهم فيضيق بعضهم بعضاً وتتوقف مكاسبهم على صحبة الملوك والرفق بهم وحسن المحاورة معهم والتملق منهم وكان ذلك هو الفن الذي تتعمق أفكارهم فيه وتضيع أوقاتهم معه.

فلما كثرت هذه الأشغال تشبَّح في نفوس الناس هيئات خسيسة وأعرضوا عن الأخلاق الصالحة ، وإن شئت أن تعرف حقيقة هذا المرض فانظر إلى قوم ليست فيهم الخلافة ولا هم متعمقون في لذائذ الأطعمة والألبسة تجد كل واحد منهم بيده أمره وليس عليه من الضرائب الثقيلة ما يثقل ظهره فهم يستطيعون التفرغ لأمر ا لدين والملة ثم تصور حالهم لو كان فيهم الخلافة وملأها وسخروا الرعية وتسلطوا عليهم.

---

(١) لا تجمع.

(٢) المكانة والمنزلة عند الناس.

(٣) يمدون كفهم إلى الناس يستعطون..

فلما عظمت هذه المصيبة واشتدَّ هذا المرض سخط عليهم الله والملائكة المقربون وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته فبعث نبيّاً أميّاً ﷺ لم يخالط العجم والروم ولم يترسم برسومهم وجعله ميزاناً يعرف به الهدى الصالح المرضي عند الله من غير المرضيِّ وأنطقه بذم عادات الأعاجم وقبح الاستغراق في الحياة الدنيا والاطمئنان بها ، ونفث في قلبه أن يحرم عليهم رؤوس ما اعتاده الأعاجم وتباهوا بها كلبس الحرير والقسي[١] والأرجوان[٢] ، واستعمال أواني الذهب والفضة وحلى الذهب غير المقطع ، والثياب المصنوعة فيها الصور وتزويق البيوت[٣] وغير ذلك ، وقضى بزوال دولتهم بدولته ورئاستهم برئاسته وبأنَّه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده[٤]

* * *

(١) - ثياب مضلّعة فيها الحرير .

(٢) الثياب الحمر .

(٣) زوّق البيت نقشه .

(٤) حجة الله البالغة باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم .

أهـلُ الطبقَـة العُليَـا مِـن الأمّـة

للسيد عبد الرحمن الكواكبي[1]

الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العليا من الأمة ولا سيما في الشيوخ ، مرتبة (الخَور[2] في الطبيعة) لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ، ويتقاصرون عن كل عمل ويحجمون عن كل إقدام ، ويتوقعون الخيبة في كل أمل ، ومن أقبح آثار هذا الخور نظرهم الكمال في الأجانب كما ينظر الصبيان الكمال في آبائهم ومعلّميهم ، فيندفعون لتقليد الأجانب واتباعهم ، فيما يظنونه رقة وظرافة وتمدناً ، وينخدعون لهم فيما يغشونهم به ، كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به ، فمنهم

(١) ولد السيد عبد الرحمن الكواكبي عام ١٢٦٥ هـ في بيت من الأشراف في حلب كانت فيه نقابة الأشراف، ونشأ في جو يمتاز بتقاليده العريقة من عزّة وإباء وشمم، فنشأ متزناً في الحديث دقيقاً في الفكر، نزيه النفس. تعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية شأن أبناء جيله من الأشراف، ولم يكتف بهذه الدراسة بل ارتوى من مناهل العلوم الرياضية والطبيعية وتعلّم اللغة الفارسية والتركية وانكب على قراءة الكتب التاريخية ودراسة القوانين العثمانية بصفة خاصة وتولى شتى الأعمال والمناصب للحكومة، وأنشأ جريدة حرّة في حلب اسمها «الشهباء» وتعرَّض لعداء الولاة في حلب، وكان قوي الشعور بفساد حال المسلمين فخصص جزءاً كبيراً من حياته في تعرّف أحوالهم في جميع أقطار الأرض وتشخيص أمراضهم وتلمُّس العلاج لهم، فساح في بلاد المسلمين من الشرق إلى الغرب حتى وافته المنية في مصر يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ.

(٢) خوِر خوراً فتر وضعف.

من يستحي من الصلاة في غير الخلوات ، وكإهمال التمسك بالعادات القومية ، فمنهم من يستحي من عمامته ، وكالبعد عن الاعتزاز بالعشيرة كأن قومهم من سقط البشر ، وكنبذ التحزب للرأي كأنهم خلقوا قاصرين ، وكالغفلة عن إيثار الأقربين في المنافع ، وكالقعود عن التناصر والتراحم بينهم كي لا يشم من ذلك رائحة التعصب الديني ، وإن كان على الحق إلى نحو ذلك من الخصال الذميمة في أهل الخَور من المسلمين الحميدة في الأجانب ، لأن الأجانب يموهون عليهم بأنهم يحسنون التحلي بها دونهم .

وهؤلاء الواهنة يحق لهم أن تشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم ، كما قد يألف الجسم السقم فلا تلذ له العافية فإنهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير يقبّلون يده أو ذيله أو رجله ، وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم ، وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق[١] ، وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك ، وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات ، ذاك يتطاول وهم يتقاصرون ، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض ، كأنهم للموت مشتاقون .

وهكذا طول الألفة على هذه الخصال قلب من فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازي مفاخر ، فصاروا يسمون التصاغر أدباً ، والتذلل لطفاً ، والتملق فصاحة ، واللكنة رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الإهانة تواضعاً ، والرضاء بالظلم طاعة ، كما يسمون دعوى الاستحقاق غروراً ، والخروج عن الشأن الذاتي فضولاً ، ومد النظر إلى الغد أملاً ، والإقدام تهوراً[٢] ، والحمية حماقة ، والشهامة[٣] شراسة[٤] ،

---

(١) المطرق والمطرقة آلة من حديد ونحوه يضرب به الحديد ونحوه جمعه مطارق .

(٢) تهور الرجل وقع في الأمر بقلة مبالاة .

(٣) الشهامة الحرص على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل .

(٤) شرس الرجل شراسة وشرساً وشريساً كان سيىء الخلق شديد الخلاف .

وحرية القول وقاحة ، وحب الوطن جنوناً.

وليعلم أن الناشئة الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء وتتعلق الأوطان بحبال همتهم عساهم يأتون فعلاً ، هم أولئك الشباب ومن في حكمهم المحمديون المهذبون الذين يقال فيهم: إن شباب رأي القوم عند شبابهم ، الذين يفتخرون بدينهم فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم ، ويتجنَّبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات ، الذين لا يقصرون بناء قصور الفخر على عظام نخرها الدهر ، ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف ، الذين يعلمون أنهم خلقوا أحراراً ، فيأبون الذل والإسار ، الذين يودون أن يموتوا كراماً ، ولا يحيون لئاماً ، الذين يجهدون أن ينالوا حياة رضية ، حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل في شؤونه لا يحكمه غير الدين ، وشريك أمين لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء ، وولد بار لوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله ، الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب ، الذين يعشقون الإنسانية ويعلمون أن البشرية هي العلم ، والبهيمية هي الجهالة ، الذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس ، الذين يعرفون أن القنوط وباء الآمال ، والتردد وباء الأعمال ، الذين يفقهون أن القضاء والقدر هما السعي والعمل ، الذين يوقنون أن كل ما على الأرض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون إلا المقدرة ولا يتوقعون من الأقدار إلا خيراً.

وأما الناشئة المتفرنجة[١] فلا خير فيهم لأنفسهم فضلاً عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئاً ، وذلك لأنهم لا خلاق لهم تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت لا يتبعون مسلكاً ، ولا يسيرون على ناموس[٢] مطَّرد[٣]

---

(١) المتفرنجة المتشبهة بالفرنجة والمتخلِّقة بأخلاقها.

(٢) الشريعة والمبدأ.

(٣) قياس مطرد أي عام لا شذوذ فيه.

لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعملون به تهاوناً وكسلاً ، ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم ويستحسنون عاداتهم ومميّزاتهم فيميلون لمناظرتهم ولكن لا يقوون على ترك التفرنج كأنهم خلقوا أتباعاً ، ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم في التشبيب[1] والإحساس فقط دون التشبُّث بالأعمال التي يستوجبها الحب الصادق والحاصل أن شؤون الناشئة المتفرنجة أيضاً لا تخرج عن تذبذب تلون ونفاق يجمعها وصف «لا خلاق» والواهنة خير منهم متمسكون بالدين ولو رياء ، وبالطاعة ولو عمياء ، على أنه يوجد في المتفرنجة أفراد غيورون كالراسخين من أحرار الأتراك والملتهبين غيرة تقتضي احترام مزيتهم[2] .

* * *

(١) شَبَّب الشاعر بفلانة قال فيها النسيب ووصف محاسنها .

(٢) أم القرى للسيد عبد الرحمن الكواكبي .

رسَالة محمَّد ﷺ

للشيخ محمد عبده[١]

كانت دولتا العالم ـ دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب ـ في تنازع وتجالد مستمر: دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة، أموال هالكة، وظلم من الإحن[٢] حالكة[٣]، ومع ذلك فقد كان الزهو[٤]

---

(١) ولد الشيخ محمد عبده عام ١٢٦٦ في أسرة فلاَّحين، وتعلَّم في الجامع الأزهر ـ وهو على النمط القديم ـ فقضى فيه نحو اثني عشر عاماً، ونال شهادة العالمية، والتقى بالسيد جمال الدين الأفغاني فلزمه وتشبَّع بأفكاره وتشرَّب من روحه، واتصل بالتدريس والصحافة والوظائف، وحكم عليه في الثورة العرابية بالنفي ثلاث سنوات أقام خلالها في بيروت، ودعاه أستاذه السيد جمال الدين إلى باريس فلبَّاه واشترك معه في إخراج مجلَّة «العروة الوثقى» كان للسيد فيه التوجيه والروح وللشيخ التحرير والصياغة، وأقلقت الانجليز والفرنسيين واضطهدوها فاحتجبت بعد ظهور ثمانية عشر عدداً، وقد بذرت بذوراً في العالم الإسلامي وأثارت الأفكار، وعاد محمد عبده إلى بيروت عالماً ومعلماً، وشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان وشغل نفسه بالتدريس. ورجع إلى مصر بعدما عفي عنه، وتقلَّب في وظائف القضاء حتى عين مفتياً وعضواً دائماً في مجلس شورى القوانين، واشتغل بإصلاح الأزهر وإصلاح برامج التعليم وتهيئة الأفكار مقلعاً عن السياسة العملية، متمتّعاً بحماية ممثلي الدولة البريطانية في مصر. وعُني الشيخ محمد عبده بإصلاح أساليب اللغة العربية. وقد دعا إلى تدريس كتب المتقدمين الذين كانوا أصحاب الذوق الأصيل وكان سبباً في نهضة لغوية أدبية في مصر وتحول الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة إلى كتابة مرسلة جميلة، وخلَّف مدرسة فكرية تأخذ بتعاليمه في الأقطار الإسلامية المختلفة، توفي سنة ١٩٠٥ م.

(٢) جمع إحنة وهي الحقد.

(٣) مظلمة.

(٤) الفخر والتيه..

والترف والإسراف والفخفخة[١] والتفنن في الملاذ بالغة حد ما لا يوصف في قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة. وكان شره[٢] هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد، فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الإتاوات[٣] حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها. وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال.

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر إليها من ذوي الألباب، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم، وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجماوات[٤] مع من يقتنيها[٥]، ضلت السادات في عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص[٦] النور الإلهي الذي يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول، فتهتدي العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام، ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات، ليقذفوا في عقول العامة، فيغلظ

(١) الفخر بالباطل.
(٢) الحرص الشديد.
(٣) الجبايات والضرائب.
(٤) جمع عجماء وهي البهيمة.
(٥) يكتسبها ويربّيها.
(٦) تلألؤه وإشراقه.

الحجاب ويعظم الرَّيْنُ ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد.

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معايشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى في جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد[١] من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، أوت إلى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر.

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة[٢] حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلاً عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ،خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبي نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع ، إلى المعامع[٣] ، ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن أو

(١) شواذ.

(٢) الخبث والفسق.

(٣) الحروب والفتن.

تنصلاً[١] من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يُعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت ربط[٢] النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التي أظلت رؤوس جميع الأمم؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل «٢٠ إبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام» ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة. ولد يتيماً ، توفي والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمسة جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك .

وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب . وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يُتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين ، أدب إلهي لم تجر العادة بأن تُزَيَّنَ به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوَّام ، فاكتهل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحِّداً وهم وثنيون ، سِلماً

---

(١) خروجاً وتخلُّصاً .

(٢) الربط بضمتين جمع رباط وهو ما يربط به .

وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمّياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما إن كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك هو الإفك المبين ، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين. وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

وجد شيئاً من المال يسد حاجته «وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته» بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناءٌ له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا. ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ،

ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة ، والتحنث[١] بمناجاة الله تعالى ، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه ـ إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهي ، وتجلّى عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي . في تفصيل ليس هذا موضعه .

ولم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعله جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم ، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع[٢] حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلبما ئتابعير ، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته ، فقال هي أن ترد إليّ مائتي بعير أصبتها لي ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : أنا رب الإبل وأما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام ـ وعبد المطلب في مكانتهمن الرئاسة على قريش ـ فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا أعوان ، لا سليقة[٣] في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على

---

(١) التعبُّد .

(٢) الموضع يقصده الناس في طلب الكلأ .

(٣) الطبيعة .

الرؤوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب[١] لإرشاد الأمم وكفالته لهم كشف الغمم . بل وإحياء الرِّمم[٢]؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في رُوعه[٣] من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ عن عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية تنصره في عمله ، وتمده في الانتهاء إلى أمله ، قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوحي السماوي ، قام لديه مقام القائد والجندي . أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلي المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة؟

نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ـ وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ـ وفي الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان ورد كل شيء في الوجود إليه ـ أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به . صاح بذوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة ، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم .

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحي ، أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية ، في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة

---

(١) قام ونهض .

(٢) العظام البالية .

(٣) الذهن والعقل .

إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة.

وخز[١] بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الأمل ـ مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية ، فبكّت[٢] الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم.

ولفت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة. وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه ، وليست في الاعتقاد بوجوده ـ وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل. ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين

---

(١) طعن.

(٢) بكّت عنّف وقرّع ومنه تبكيت الضمير.

متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق.

دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقونه في الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة ، والإخلاص للعباد في العدل والنصحية والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله ، لا يروْن فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته.

ما هذه القوة في ذلك الضعف؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؟ ما هذا العلم في تلك الأمية؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أي برهان على النبوة أعظم من هذا؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرؤون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشىء بين الواهمين لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملجم؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه ، نبي صدق الأنبياء ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة ، وآية الحق الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] [فصلت : ٤٢] .

* * *

---

(١) رسالة التوحيد.

الكوخ وَالقصر

للسيد مصطفى لطفي المنفلوطي[١]

أنا إن كنت حاسداً أحداً على نعمة فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه ، قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره ، ولولا أن للأوهام سلطاناً على النفوس لما تضاءل الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا وَرِمَ أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً من دون الله .

أنا لا أغبط الغنيّ إلاَّ في موطن واحد من مواطنه ، إن رأيته يشبع الجائع ، ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه ، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها[٢] ، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ، ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيته يتربّص وقوع الضائقة بالفقير ليَدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة[٣] الباقية له من ماله ليسدَّ في

(١) وُلد السيد مصطفى لطفي في منفلوط من أعمال مديرية أسيوط في مصر، حفظ القرآن الكريم وتعلّم في الأزهر وواظب على دروس الشيخ محمد عبده، وعكف على كتب البلغاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ويستظهر وهو أديب مطبوع يرسل النثر حلواً مسلسلاً محبوكاً، كان دقيق الحس، رقيق العاطفة، رشيق القلم سهل البيان، حلو العبارة، مشرق الديباجة، كان يكتب في صحيفة المؤيد بعنوان «نظرات» يقرؤها الأدباء والشبان برغبة وجمعت في كتاب أسماه «النظرات» وله كتاب «العبرات» ومختارات المنفلوطي وروايات أشهرها «ماجدولين» توفي سنة ١٩٢٤ م.

(٢) عال الرجل عياله كفاهم معاشهم .

(٣) ما يبقى في أسفل الإناء أو الحوض من ماء وغيره .

وجهه باب الأمل ، وأرثي له إن رأيته يعتقد أنّ المال هو منتهى الكمال الإنساني ، فلا يطمع في فضيلة ، ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثي له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بإيماء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر[١] بعينيه خزراً ليرى هل سجد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيبته ، وأرحمه الرحمة كلها أن عاش شحيحاً جعداً مقتّراً على نفسه وعياله ، بغيضاً إلى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعة حتفه .

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشاً ، وأروحهم بالاً إلا إذا كان جاهلاً مخدوعاً يظن أنّ الغنيّ أسعد منه حظّاً ، وأرغد عيشاً ، وأثلج صدراً ، فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه ، ويجلس في كسر[٢] بيته جلسةَ الكئيبِ المحزون ، يصعِّد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العَبرة فالعَبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رُبَّ صاحب قصر يتمنّى كوخَ الفقير وعيشَه ، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالا ، وأكثر لألاء ، من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق[٣] بين يديه ، وأن تلك الحشيّة[٤] من الشَّعر أو الوَبر أنعم ملمساً ، وألين مضجعاً ، من وسائد الحرير ونضائد[٥] الديباج .

ولقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس أنهم يحفلون بالأغنياء لأنهم أغنياء ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبُلُّ غُلَّة ، أو يسيغ غصَّة ، وليت شعري إن كان لابدَّ لهم من إجلال المال وإعظامه حيث وُجد فلِمَ

---

(١) خزر يخزُر خزراً من باب نصر ، نظر بمؤخَّر عينه وتداهى ، وخزر من باب سمع ضاقت عينه فهو أخزر .

(٢) الكسر والكسْر الجانب من البيت .

(٣) ائتلق البرق ولمع .

(٤) الفراش المحشوّ .

(٥) النضيدة الوسادة .

لا يقبّلون أيدي الصيارفة ولا ينهضون إجلالاً للكلاب المطوقة بالذهب ، وهم يعلمون أن لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء .

لو عاملَ الفقراءُ بخلاءَ الأغنياءِ بما يجب أن يعامَلوا به لوجدوا أنفسهم في وحشة أنفسهم ، ولشعروا أن بدرات الذهب التي يكنزونها إنما هي أساود ملتفة على أقدامهم ، وأغلال آخذة بأعناقهم ، ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال لا في أحمال المال .

فليعظِّم الناسُ الكرماءَ ، وليحتقروا الأغنياءَ ، وليعلموا أنَّ الشرف شيء وراء الغنى والفقر ، وأنَّ السعادة أمر وراء الكوخ والقصر[١] .

* * *

(١) النظرات للمنفلوطي .

سيدي أحمد الشريف السّنوسي

للأمير شكيب أرسلان[١]

عندما قدمت إلى الآستانة في أواخر سنة ١٩٢٣، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب قررت لأجل الاستجمام[٢] من عناء الأشغال وترويح[٣] النفس بعد طول النضال[٤]، أن أسكن ببلد صغير تتهيَّأ لي فيه العزلة وتسهل الرياضة، ويكون دانياً من وطني سورية لملاحظة شغلي

---

(١) هو أمير البيان وكاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان، من بيت الأمراء الدروز العرب في الشام، يتصل نسبه بالملك المنذر بن النعمان الشهير بأبي قابوس، ولد عام ١٨٦٩ في الشويفات، واشتغل بالأدب والإنشاء والسياسة من أوائل عمره، وأفاد من صحبة السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، ونشأ على حبّ هذه المدرسة وحبّ العقيدة الإسلامية، وانتخب مبعوثاً في مجلس «المبعوثان» التركي، وحضر الحرب في طرابلس، ثم انتقل إلى جنيف حيث قضى معظم عمره في الدفاع عن قضايا المسلمين والعرب، وحرّم عليه قلمه أن يطأ بقدمه أكثر البلاد الإسلامية، وانتقل في آخر حياته إلى وطنه وتوفي في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٤٦ في بيروت، ودفن في الشويفات وكان قد أوصى أن يُغسَّلَ ويُكفن ويُصلّى عليه على طريقة أهل السُّنَّة. رحمه الله تعالى.

يمتاز الأمير بين كُتَّاب هذا العصر بالرسوخ في اللغة العربية، والتضلُّع في أمثال العرب والأساليب القديمة، يعطف على السجع أحياناً، وله في الكلام المرسل إحسان وإبداع، ألَّف عشراتٍ من المؤلفات وكتب ألوفاً من الصفحات أحسنها وأشهرها حواشيه على حاضر العالم الإسلامي، وترجمة السيد السنوسي ملتقطة منها.

(٢) الاستراحة يقال: «إني لأستجم قلبي بشيء من اللهو» أي إني لأجعل قلبي يتفكَّه بشيء من اللهو.

(٣) الإراحة.

(٤) الحرب والعمل وأصله الرمي بالسهام وكان الأمير مشغولاً في حرب طرابلس.

الخاص، وتعهد أملاكي فيها، فاخترت مرسين[١]، وألقيت مرساة[٢] غربتي فيها. -

وكان السيد السنوسي بلغه قدومي إلى دار السعادة، فكتب لي يرغب إليَّ في سرعة المجيء ويرحّب بي. فلما جئت إلى مرسين، ذهبت تواً[٣] لزيارته فأبى إلاَّ أن أنزل عنده، ريثما أكون استأجرت منزلاً في البلدة، وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله عنه بالسماع، وحُقَّ لي والله أن أنشد:

كانت محادثـةُ الركبانِ تُـخْبرنا عن جعفر بن فلاحٍ أطيبَ الخَبَرِ

حتى التقَيْنا فلا واللهِ ما سَمِعَتْ أذني بأحسنَ مما قد رأى بَصَري

رأيت في السيد حبراً جليلاً، وسيداً غطريفاً[٤]، وأستاذاً كبيراً، من أنبل[٥] مَنْ وَقَعَ نظري عليهم مدةَ حياتي، جلالةَ قدرٍ، وسراوةَ[٦] حالٍ ورجاحةَ عقلٍ، وسجاحة[٧] خُلُقٍ، وكرمَ مهزةٍ وسرعةَ فهمٍ، وسدادَ رأيٍ، وقوةَ حافظةٍ، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رئاءٍ ولا سُمعةٍ.

سمعت أنه لا يرقدُ في الليل أكثرَ من ثلاث ساعاتٍ، ويقضي سائرَ ليله في العبادة والتلاوة، والتهجُّد، ورأيتُه مراراً تنفج[٨] بين يديه السُّفَرُ

---

(١) بلد واقع على شاطىء البحر الأبيض من سواحل تركيا وهو آخرها مما يلي سورية وبعده إسكندرونة.

(٢) أَنْجَرُ السفينة ج مراسٍ وإلقاء المرساة كناية عن الإقامة يقال ألقى مراسيه أي أقام.

(٣) يقال جاء تواً أي قاصداً لا يعرجه شيء.

(٤) بالكسر السريّ، السيد، الحسن ج غطارفة وغطاريف.

(٥) ذو نجابة وفضيل.

(٦) المروءة والسخاء.

(٧) دماثة الخلق ولينه وسهولته.

(٨) تبسط.

الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية[١] ويجتزىء[٢] هو بطعام واحد لا يصيب منه إلا قليلاً ، وهكذا هي عادته .

وله مجلس كل يوم بين صلاتَيْ الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربةُ. فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعيَّة ، ويتناول كلٌّ منهم ثلاثةَ أقداحِ شايٍ ممزوجاً بالعنبر. فأما هو فيتحامى[٣] شرب الشاي لعدم ملاءمته لصحته ، وقد يتناول قدحاً من النعناع .

ومن عادته أنه يوقد في مجالسه غالباً الطيب ، وينبسط السيد إلى الحديث ، وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم وسير سلفه السيد محمد بن علي بن السنوسي ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الأولياء والصالحين. وإذا تكلم في العلوم قال قولاً سديداً ، سواء في علم الظاهر والباطن .

وقد لحظت منه صبراً قلَّ أن يوجدَ في غيره من الرجال ، وعزماً شديداً تلوح سيماؤه[٤] على وجهه ، فبينا هو في تقواه من الأبدال إذا هو في شجاعته من الأبطال. وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ، ويمتطي[٥] جواده[٦] بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال[٧] ، وكثيراً ما كان يغامر[٨] بنفسه ولا يقتدي بالأمراء وقوّاد

(١) أهل الرجل وخاصته ج حواشٍ .
(٢) يكتفي .
(٣) يحترز ويتجنب .
(٤) العلامة والهيئة .
(٥) يركب .
(٦) الفرس السريع ج جياد وأجياد وأجاويد .
(٧) التعب والإعياء .
(٨) يقاتل ولم يبالِ الموت .

الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، أن لا تصل إليهم يدُ العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي إحدى المرار أوشك أن يقع في أيدي الطليان[١] ، وشاع أنهم أخذوه أسيراً ، وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا[٢] إليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة خاصة لركوبه ، إذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت[٣] من أيديهم تلك المرة ، فبلغه خبر زحفهم[٤] وكان يمكنه أن يخيم[٥] عن اللقاء أو أن يتحرف[٦] بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل ، وقال لي : «خفت أنني إن طلبت النجاة بنفسي أصاب المجاهدين الوهل[٧] ، فدارت عليهم الدائرة[٨] ، فثبتُّ للطليان وهم بضعة آلاف بثلثمائةمقاتل لا غير ، واستمات[٩] العرب وصدموا العدو ، فلما رأى وفرة[١٠] من وقع من القتلى والجرحى ارتدوا على أعقابهم ، وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين» .

قال لي : وفي هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحوراني ، الذي كان

---

(١) أهل إيطاليا .
(٢) أرسلوا ووجّهوا .
(٣) لا يتخلص .
(٤) مشيهم يقال «زحف العسكر إلى العدو» إذا مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم بابه فتح .
(٥) أن يعدل وينصرف .
(٦) ينحرف ويميل .
(٧) الفزع .
(٨) النازلة والمصيبة ج دوائر يقال «دارت عليهم الدوائر» أي نزلت بهم النوائب والدواهي .
(٩) أي ثبتوا وطلبوا الموت .
(١٠) الكثرة .

من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس[١] بنفسه في كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة رحمه الله ، ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه لباهر شجاعته وشديد إخلاصه ، وكان السيد يكتب لي من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحم عليه ، والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلي ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك في بلاد الغرب ذكراً خالداً.

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يملُّ الكتابة أصلاً ، وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعني عليه في تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الأعيان من مريديهم والمتصلبين بهم ، ينوي طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين.

وإنما يفهم الإنسان من مطالعة أخبار سيدي محمد السنوسي ، وولده سيدي المهدي ، ومحادثة سيدي أحمد الشريف ، أن طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفي بالأذكار والأوراد ، دون القيام بعزائم الإسلام ، كما كان عليه الصدر الأول ولذلك وفقوا للجهاد ووقفوا في وجه دولة عظيمة كدولة إيطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة لطرابلس وبرقة منذ أول شهر من غاراتها عليهما ، ويذكر الناس أن الطليان قدّروا لتدويخ[٢] طرابلس وبرقه كلهما مدة خمسة عشر يوماً من أول نزولهم ، وأن قواداً من الانكليز المُحَنَّكين[٣] في حروب المستعمرات[٤] والبوادي قالوا إنّ الطليان أفرطوا في التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس في ١٥ يوماً ، والحقيقة أنه قد تأخذ هذه المسألة معهم ثلاثة أشهر. فلينظر الإنسان كيف أن المدة التي قدرها

---

(١) يغامر بها ويلقيها في الخطر.

(٢) أي القهر والاستيلاء.

(٣) المجرَّبين الذين جعلتهم التجارب حكماء.

(٤) جمع مستعمرة وهي ما تمتلكه دولة من الدول في بلاد غيرها.

أركان الحرب في إيطالية ١٥ يوماً ، وقدَّرها أركان الحرب في إنكلترة ثلاثة أشهر ، تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هي كما كانت في بدايتها ، وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد العظيم سيدي أحمد الشريف.

وكان الأوربيون في عهد السلطان عبد الحميد يَشْكون إلى السلطان حركة السنوسي ، ويتوجَّسون[١] خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الأوربية في إفريقية ، وطالما ضغطت[٢] دول أوربا على السلطان لأجل أن يستدعي السيد المهديَّ إلى الآستانة[٣] ويأمره بالإقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة إلى وطنه ، ليخلو للأوربيين الجوُّ في تقسيم أواسط إفريقية ، وخضد[٤] الشوكة الإسلامية في تلك الديار فكان السلطان يماطل[٥] هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الأعذار ، بل كان يلاطف السنوسي كثيراً بالهدايا والكتابات ، إلى أن اشتد الضغط على السلطان في قضية السنوسي ، فأرسل رجلاً اسمه عصمت بك إلى بنغازي[٦] ، ومنها إلى جغبوب[٧] بمأمورية[٨] سرية ، فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك[٩] من جهة ضغط الدول عليه ، في أمر الدعاية السنوسية ، فأجابه السيد مهدي بحسب ما قرأت في التاريخ الذي تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفياً ولا إيجاباً ، وإنما تلا له آيات كريمة في

(١) يحسون.
(٢) ضيَّقت، بابه فتح.
(٣) دار الخلافة العثمانية أي القسطنطينية.
(٤) أي الكسر وخضد شوكته قهره وأذلَّه.
(٥) أي يسوف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى.
(٦) قاعدة برقة.
(٧) موضع.
(٨) أي بمهمة.
(٩) التردد.

معنى الاتكال على الله. ولكن السيد المهدي لم يعتّم[1] بعدها أن فارق الجغبوب إلى واحة[2] الكفرة وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة في وسط الصحراء ، والأغلب أن سبب تحوله من واحة الجغبوب القريبة من مصر وبرقة إلى واحة الكفرة التي هي في أواسط الصحراء الكبرى ثم توغله[3]من الكفرة إلى ناحية قرو التي اختاره الله فيها ، وهي على أبواب السودان هما من ارتياحه إلى العزلة ، وميله إلى التنائي عن مراكز السلطة الرسمية ، والخروج عن مناطق تأثير الدول الاستعمارية بحيث انتبذ مراكز محاطة بالفيافي[4] والقفار[5] ، مأهولة[6] بأقوام لا يزالون على الفطرة ، فأصبح حرّاً في بث دعوته لا تصل إليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشّأهم في طاعة الله بعد أن كانوا يتسكّعون[7] في مهامه[8] الجهل فبدّلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حيّر العقول ، ولم يقف في الدعاية الروحية على واحات الصحراء وأطراف السوادين ، بل بثّ دعاته في أواسط إفريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السني ، والشيخ حمودة المقعاوي ، والسيد طاهر الدغماري ، ورجالات آخرون جالوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان

---

(١) لم يمكث ولم يلبث.
(٢) أرض خصيبة في صحار رملية ج واحات.
(٣) توغل في البلاد ذهب وأبعد.
(٤) جمع فيفاء المفازة لا ماء فيها.
(٥) جمع قفر الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا كلأ ولا ناس ويجمع أيضاً على قفور.
(٦) معمورة.
(٧) تسكع في سيره أو أمره لم يهتد لوجهته.
(٨) جمع مهمه أي المفازة البعيدة.

السيد المهدي هو المزاحم الأكبر لجمعيات المبشرين الأوربية ، والمنبثَّة في قارة إفريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة[١] اهتدى للإسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعيات المبشرين بأسرها تشكو حزنها ، وبثها من نجاح الإسلام في أواسط إفريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون، وديار بحيرة تشاد، وتوجه أكثر شكواها إلى الطريقة السنوسية، كما طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة.

هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدي يهدي هدى[٢] الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان ، فكان يحث إخوانه ومريديه دائماً على الفروسيّة والرماية ، ويبث فيهم روح الأَنَفَة والنشاط ، ويحملهم على الطّراد[٣] والجلاد[٤] ويعظِّم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس[٥] وعظه في مواقع كثيرة لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع[٦] قوة الدول الكبرى وتضارع أعظمها جبروتاً وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس في مملكة كانم ومملكة واداي من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ إلى سنة ١٣٣٢ هجرية .

وحدثني السيد أحمد الشريف أن عمه المهدي كان عنده خمسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده لا يرضى أن

---

(١) السريعة .
(٢) السيرة .
(٣) أي حمل بعضهم على بعض .
(٤) المضاربة بالسيوف .
(٥) ثبات الشجر في الأرض .
(٦) تشابه .

يمسحها له أحد من أتباعه المعدودين بالمئات قصداً وعمداً ليقتدي به الناس ويحتفلوا[١] بأمر الجهاد ، وعُدته[٢] وعَتاده[٣] ، وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمرينات الحربية ، من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك ، فكان يجلس السيد في مرقب عالٍ ، والفرسان تنقسم صفين ، ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي إلا في آخر النهار ، وأحياناً يضعون هدفاً ، ويأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد ويقرطسون[٤] في الرمي بجوائز ذات قيمة ترغيباً لهم في فضائل الحرب كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصَّصاً عندهم للشغل بالأيدي فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشتغلون بأنواع المهن[٥] من بناء ، ونجارة وحدادة ، ونساجة ، وصحافة وغير ذلك .

لا تجد منهم ذلك اليوم إلا عاملاً بيده ، والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل ، وكان السيد المهدي وأبوه من قبله يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها[٦] ، والجنان التي نسَّقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية إلا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة إلى بلادهم من أقاصي البلدان ، وقد أدخلوا في الكفرة وجغبوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم: «الكيمياء تحت

---

(١) احتفل بالأمر أحسن القيام به .

(٢) بالضم ماأعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عُدد .

(٣) بالفتح ما أعد لأمر ماوكل ما هيىء من سلاح ودواب وآلة حرب ج أعتُد وعُتُد وأعتِدَة .

(٤) قرطس أصاب القرطاس أي الغرض .

(٥) جمع مهنة أي العمل .

(٦) شاد البناء رفعه بابه ضرب .

سكة[(١)] المحراث[(٢)]» وأحياناً يقول لهم: «الكيمياء هي كد اليمين[(٣)] وعرق الجبين» وكان يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام على الحرف والصناعات، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم، وتزيد رغبتهم في حرفهم[(٤)]، حتى لا يزدروا بها أو يظنُّوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء، فكان يقول لهم: «يكفيكم من الدين حسن النيَّة والقيام بالفرائض الشرعيَّة، وليس غيركم بأفضل منكم» وأحياناً يدمج[(٥)] نفسه بين أهل الحرف، ويقول لهم وهو يشتغل معهم: «يظن أهل الأوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا». يريد بأهل الأوريقات العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصنَّاع لا تظنُّوا أنكم دون العلماء والزهَّاد مقاماً، بمجرد كونكم صنَّاعاً وعملة، وكونهم هم علماء وقراء، هذا ليزيدهم رغبة وشوقاً، ويعلِّم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنيَّة إلا بها.

هذه الفرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير، فهي تجمع بين العمل الشرعي بحذافيره[(٦)]، والتجرُّد الصوفي إلى أقصى درجاته، وتنظم بين الظاهر والباطن، نظماً لم يوفَّق إليه غيرها[(٧)]، ويظهر أن مؤسِّسي هذه الطريقة السيد محمد بن علي بن

---

(١) حديدة الفدان التي تشق الأرض ج سِكك.

(٢) آلة الحرث ج محاريث.

(٣) كناية عن العمل بمشقة وعناء وكذلك عرق الجبين.

(٤) جمع حرفة الصناعة ووجهة الكسب.

(٥) يُدخل.

(٦) بأسره وأجمعه.

(٧) لقد سبقهم بهذا النظم في الهند بنحو قرن السيد الإمام أحمد بن عرفان البريلوي إمام الطريقة وإمام المجاهدين ورئيس حكومة شرعية على تخوم الهند ووزيره ويمينه مولانا إسماعيل الشهيد الدهلوي رحمهما الله تعالى، راجع للتفصيل كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» طبع ببيروت.

السنوسي ، وولديه السيد المهدي ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدي أحمد الريفي ، وسيدي عمران بن بركة ، وسيدي أحمد التواتي ، وسيدي عبد الرحيم بن أحمد ، وسيدي عبد الله السني ، وسيدي أبي القاسم العيساوي ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم.

حدثني سيدي أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له : «لا تحقرن أحداً ، لا مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك ، إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمته».

وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم ، وواسطة[١] عِقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذي نحن في ترجمته.

وقد ذرَّف[٢] السيِّد المشار إليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله إلى هذه السن ، لندورة الشيب في شعره ، وهو رائع المنظر ، بهيُّ الطلعة ، عبل[٣] الجسم ، قوي البنية ، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه[٤].

* * *

(١) واسطة العقد الجوهرة التي تكون في وسط القلادة وهي أجودها والمراد بواسطة عقدهم أفضلهم.

(٢) أربى وزاد.

(٣) الضخم.

(٤) توفي سيدي أحمد الشريف السنوسي في المدينة المنورة في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٥١ هـ.

الـدِّيـن الصِّنَـاعـي

للدكتور أحمد أمين[١]

هل تعرف الفرق بين الحرير الطبيعي والحرير الصناعي؟ وهل تعرف الفرق بين الأسد وصورة الأسد؟ وهل تعرف الفرق بين الدنيا في الخارج والدنيا على الخريطة[٢]؟ وهل تعرف الفرق بين عملك في اليقظة وعملك في المنام؟ وهل تعرف الفرق بين إنسان يسعى في الحياة ، وبين إنسان من جبس[٣] وضع في متجر لتعرض عليه الملابس؟ وهل تعرف الفرق بين النـائحة الثكلـى[٤] والنائحـة المستأجـرَة ، وبين التكحـل فـي العينيـن

---

(١) وُلد أحمد أمين عام ١٨٨٦ م في مدينة القاهرة ودخل الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي فتخرج بها قاضياً وتعلم الانكليزية واشتهر ببحوثه الأدبية ومقالاته العلمية، وفي عام ١٩٣٦ عُيّن مدرِّساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب بعد قليل عميداً للكلية، ومنح عام ١٩٤٨ لقب الدكتوراه مع جائزة فؤاد الأول، وانتخب مديراً للإدارة الثقافية بالجامعة العربية، وظلّ مشرفاً على لجنة التأليف والترجمة والنشر نحو ثلاثين سنة وأشرف على طبع كتب كثيرة، وساهم في تأليف عدة كتب، توفي عام ١٩٥٤ م. من أشهر مؤلفاته وأعظمها انتشاراً سلسلة كتب «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» وله «فيض الخاطر» مجموع مقالات في سبعة مجلدات، والأستاذ أحمد أمين من كبار المنشئين والمؤلفين في هذا العصر، يغلب على إنشائه الطبع والرُّواء وعدم التكلف، وله في البحوث العلمية أسلوب متين رشيق، وله آراء فيها شذوذ وخلاف للعلماء.

(٢) ما ترسم عليه هيئة الأرض أو إقليم منها.

(٣) الجص الذي يُبنى به.

(٤) التي فقدت ولدها.

والكَحَلِ[١]؟ وهل تعرف الفرق بين السيف يمسكه الجندي المحارب وبين السيف الخشبي يمسكه الخطيب يوم الجمعة؟ وهل تعرف الفرق بين الناس في الحياة والناس على الشاشة[٢] البيضاء؟ وهل تعرف الفرق بين الصوت والصدى[٣]؟ إن عرفت ذلك فهو بعينه الفرق بين الدين الحق والدين الصناعي.

يكدُّ الباحثون أذهانهم، ويجهد المؤرخون أنفسهم في تقليب صحفهم ووثائقهم عن تعرف السبب في أن المسلمين أول أمرهم أتوا بالعجائب، فغزوا وفتحوا وسادوا، والمسلمين في آخر أمرهم أتوا بالعجائب أيضاً فضعفوا وذلوا واستكانوا، والقرآن هو القرآن، وتعاليم الإسلام هي تعاليم الإسلام، ولا إله إلا الله هي لا إله إلا الله، وكل شيء هو كل شيء، ويذهبون في تعليل ذلك مذاهب شتى، ويسلكون مسالك متعددة. ولا أرى لذلك إلا سبباً واحداً وهو الفرق بين الدين الحق والدين الصناعي.

الدين الصناعي حركات وسكنات وألفاظ، ولا شيء وراء ذلك، والدين الحق دين روح وقلب وحرارة.

الصلاة في الدين الصناعي ألعاب رياضية، والحج حركة آلية ورحلة بدنية، والمظاهر الدينية أعمال مسرحية أو أشكال بهلوانية.

و«لا إله إلا الله» في الدين الصناعي قول جميل لا مدلول له. أما في الدين الحق فهي كل شيء، هي ثورة على عبادة المال، وثورة على عبادة السلطان، وثورة على عبادة الجاه، وثورة على عبادة الشهوات، وثورة على كل معبود غير الله.

---

(١) مصدر كحل من باب سمع يقال كحل الرجل أي كان أكحل العينين خلقة.

(٢) يريد الستار الذي يمثل القصة.

(٣) ما يرده الجبل أو غيره إلى المصوِّت مثل صوته ج أصداء.

«لا إله إلا الله» في الدين الصناعي تتفق مع إحناء الرأس والخضوع لشهوة البدن ، وتتفق مع الذلة والمسكنة . و«لا إله إلا الله» في الدين الحق لا تتفق إلا مع الحق. «لا إله إلا الله» في الدين الصناعي تذهب مع الريح وفي الدين الحق تزلزل الجبال .

الدين الصناعي صناعة كصناعة النجارة والحياكة ، يمهر فيها الماهر بالحذق والمران ، أما الدين الحق فروح وقلب وعقيدة. ليس عملاً ولكن يبعث على كل عمل جليل وكل عمل نبيل[١] .

الدين الحق «اكسير» يحل في الميت فيحيا ، وفي الضعيف فيقوى. هو حجر الفلاسفة تضعه على النحاس والفضة والرصاص فتكون ذهباً. هو العقيدة التي تأتي بالمعجزات فيقف العلم والتاريخ والفلسفة أمامها حائرة : بم تعلّل ، وكيف تشرح؟

هو الترياق الذي تتعاطى منه قليلاً فيذهب بكل سموم الحياة. هو العنصر الكيمياوي الذي تمزج به الشعائر الدينية فتطير بك إلى الله ، وتمزج به الأعمال الدنيوية فتذلل العقبات مهما صعبت ، وتصل بك إلى الغرض مهما لاقت .

هو الذي وجده كل من نجح ، وهو الذي فقده كل من خاب. هو الكهرباء[٢] الذي يتصل فيدوِّر العجل ، ويسير العمل ، وينقطع فلا حركة ولا عمل. هو الذي يحل في الأوتار فتوقع[٣] ، وكانت قبل حبالاً ، وفي الصوت فيغني وكان قبل هواء .

الدين الحق يحمل صاحبه على أن يحيا له ويحارب له. والدين الصناعي يحمل صاحبه على أن يحيا به ، ويتاجر به ويحتال به .

---

(١) الجليل والعظيم .

(٢) قوة تتولد في بعض الأجسام بواسطة الحك أو الحرارة أو الانفعالات الكيماوية .

(٣) أي تبنى ألحان الغناء على موقعها وميزانها .

الدين الحق صاحبه فوق كل سلطة وفوق كل سياسة. والدين الصناعي يحمل صاحبه على أن يلوي الدين ليخدم السلطات ويخدم السياسة.

الدين الحق قلب وقوة، والدين الصناعي نحو وصرف وإعراب وكلام وتأويل. الدين الحق امتزاج بالروح والدم وغضب للحق ونفور من الظلم وموت في تحقيق العدل. والدين الصناعي عمامة كبيرة وقباء يلمع وفرجية[١] واسعة الأكمام.

«الشهادة» في الدين الحق هي ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. والشهادة في الدين الصناعي إعراب جملة وتخريج متن وتفسير شرح وتوجيه حاشية وتصحيح قول مؤلف والاعتراض عليه.

الدين الحق تحسين علاقة الإنسان بالله، وتحسين علاقة الإنسان بالإنسان لتحسن علاقتهم جميعاً بالله. والدين الصناعي تحسين علاقة صاحبه بالإنسان لاستدرار رزق أو كسب جاه أو تحصيل مغنم أو دفع مغرم.

لقد صدق من قال: «إن هذا الدين لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله» وهل كان أوله إلا دين روح وهل كان آخره إلا دين صناعة؟

جناية أهل كل دين أن يبتعدوا ـ كلما تقدم بهم الزمان ـ عن روحه ويحتفظوا بشكله، وأن يقلبوا الأوضاع، ويعكسوا التقدير، فلا يكون للروح قيمة، ويكون للشكل كل القيمة.

شأن «الإيمان» شأن العشق، يحول البرودة حرارة، والخمول نباهة، والرذيلة فضيلة، والأثرة إيثاراً.

---

(١) نوع من الأقبية.

والإيمان الحق كالعصا السحرية ، لا تمس شيئاً إلا ألهبته ، ولا جامداً إلا أذابته ، ولا موتاً إلا أحيته.

من لي بمن يأخذ الدين الصناعي بكل ما فيه ، ويبيعني ذرة من الدين الحق في أسمى معانيه؟

ولي كَبِدٌ مَقْروحَةٌ مَنْ يَبيعُني بها كَبِداً لَيْسَتْ بذاتِ قُروحِ[1]

* * *

(١) الثقافة.

سالم مَولى أبي حذيفة رضي الله عنه

للدكتور طه حسين[١]

أقبل سلاَّم بن حبير القُرَظي من الشام، كعهده في كل عام، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض[٢] وضروب من المتاع، بعضه مما تخرج الشام، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة، وبعضه مما تحمله الروم إلى دمشق وبُصْرى[٣] وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة التي لا تصل إليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانه في نجد والحجاز وفي تهامة[٤] واليمن. ولم يَكَدْ سلاَّم بن جبير يستقر في بني قُريظة ويريح

(١) وُلِدَ في مصر ١٨٨٩ وفقد بصره في صِغره وجلس في الكُتَّاب وحفظ القرآن الكريم ودخل الأزهر ولم يكمل دراسته فيه وتوفَّر على دراسة الأدب العربي وسافر إلى باريس ونال الدكتوراه من جامعتها، وعُيِّن مدرِّساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب عميداً لها، ثم انقطع إلى الإنشاء والتأليف، وخالف الجمهور والمعروف في بعض الآراء وتطرَّف، وقد أثار كتابه «الشعر الجاهلي» ضجَّة في مصر وسخط أكثر أهل العلم والدين وانتخب وزير المعارف في سنة ١٩٤٩ م.
الدكتور طه حسين راسخ في العربية، عكف على مطالعة المصادر الأدبية القديمة، وتذوق أسلوب كتب السيرة والتاريخ وقلَّده، له أسلوب خاص يعرف به يتسم بنقاء الكلمات وتبسيط الموضوع وتكرار المادة، ويحسن كتابة شيء كثير لا يعتقده ولا يتحمَّس له وتلك صناعة لا يحسنها كل واحد، له «على هامش السيرة» و«الوعد الحق» عدا كتبه الأدبية والتاريخية الكثيرة.

(٢) العرض والمتاع وكل شيء سوى الدرهم والدينار.

(٣) بلد الشام.

(٤) بلد جنوبي الحجاز.

نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه مَنْ حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون. ولم تمض أيام حتى كان سلاَّم بن جبير قد باع تجارته وأفاد منها مالاً كثيراً. ولولا هذا الصبي الذي عرضه سلاَّم على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً مغتبطاً مجوِّلاً في أحياء يثرب مرسلاً رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود وفي أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى أقبل فصل الرحلة إلى الشام. ولكن هذا الصبي كان غُصَّة[١] في حلقه وحسرة في قلبه ، قد اشتراه في بُصْرَى من بعض الكلبيين بثمن بخس زهيد ، وقدَّر في نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح في ثمنه ذاك الذي أداه مثليه أو أمثاله. ولكن أهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سَلاماً جالباً للرقيق أو مُتجراً[٢] فيه. فلما رأوه يعرض عليهم هذا الصبي ويلح في عرضه ويرغب في شرائه ، أنكروا منه ذلك وظنوا به الظنون. وقال قائلهم: إنما اشترى سلاَّم هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهَّده فيه ، فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب[٣].

وكان الصبي بادي السقم ظاهر الضر ، كأنه قد لقي من الذين اتَّجروا فيه شَرّاً وَنُكراً[٤]. ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عن ذات نفسه. ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان إذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى[٥] لسانه بألفاظ فارسية

(١) ما غصَّ به الإنسان واعترض في حلقه.

(٢) تجر وتاجر وأتجر ، تعاطى التجارة.

(٣) حاجة.

(٤) منكراً.

(٥) انعطف.

لا يفهمها عنه أحد. وكان سلاَّم يزعم للناس أن هذا الصبي ذكي الفؤاد صَنَاع[١] اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم أوده[٢]. وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة أقبلت من إصْطَخْر حتى استقرت في الأبُلَّة ، فملكت أرضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصَرِّفها في أطراف العراق. فإذا سئل من أنباء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحرِ جواباً[٣] ، وإنما يقول: زعم لي من باعني هذا الصبي أن العرب اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبلة ، فباعوه من بني كلب ، وتعرَّض به بنو كلب في بصْرَى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار العرب أو اليهود. وقد رأيته فرقَّ له قلبي ومالت إليه نفسي ، وقدَّرت أن سيكون له شأن أي شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض.

هنالك كان الناس يقولون له: فلم لا تُمسكه عليك إذن؟ فيقول: إن ما أنفقت من المال فيه أحب إليَّ وآثر عندي منه. وماذا أصنع بصبي لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه ، وليس لي أهلٌ أَكِلُهُ إليهم؟ والصبي مع ذلك ذكيُّ القلب ، صَناع اليد ، موفور النشاط ، إن صلحت حاله وأصاب من الطعام ما يقيم أوده. انظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شيء. إنه سريع الحسّ يخطفَ ما يرى دون أن يثبته[٤] وانظروا إليهما كيف تتوقدان كأنهما جَذْوتان[٥]. ولكن الناس كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سَلاَّماً وفي قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح. وتمرُّ ثُبَيْتَةَ بنت يَعار الأوسية

(١) صناع اليد ماهر حاذق..

(٢) الاعوجاج.

(٣) لم يرد جواباً.

(٤) دون ان يتثبته.

(٥) جمرتان.

بسلاَّم ذات ضحى وهو يعرض صبيه هذا في أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبي حتى ترحمه ، ثم لا تكاد تُطيل النظر إليه حتى تقع في قلبها الرغبة في شرائه . قالت ثبيتة : ما اسم صبيك هذا يا ابن حبير؟ قال سلاَّم : زعم مَنْ باعه لي من بني كلب أن اسمه سالم . قالت : سالم ابن مَن؟ قال سلام : لا أدري! ولكني اشتريته من كلبي يسمى مَعْقِلاً ، وزعم لي أن أسرته أسرة شريفة أقبلت . . . قالت ثبيتة : أقبلت من إصطخر فنزلت الأبلة وزارعت النبط وصرَّفت تجارتها في أطراف العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب؛ فإني له مشترية ، فبكم تبيعه مني؟ قال سلاَّم وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه استبقى في وجهه الجد والحزم : فإني لا أريد إلا ما أديت من ثمن وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود إلى دارها بالصبي وقد ربح اليهودي فأحسن الربح ، وربحت هي بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوَّم بالدراهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما آثرت بشرائه الخير والبرْ والمعروف ، لم تُرد إلى شيء آخر . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : بُعداً لهذه الحياة التي لا يرحم الإنسان فيها الإنسان ، ولا يرأف القوي فيها بالضعيف ، ولا تَرِقّ فيها القلوب للأمّ حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة[1] يأوي إليها . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : لو أن لي صبياً مثله فعدا عليه العادون وَمضوْا به في غير مذهب من الأرض كيف كنت ألقى ذلك! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه! وهل كنت أسلو عن صبي آخر الدهر! هيهات! لو كان لي صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به في غير مذهب من الأرض لذكرته مصبحة وممسية ، ولذكرته يَقظى ونائمة ، ولتبعته نفسي وذهبت في تصوُّر حاله المذاهب ، ولما اطمأننت للعيش ولا نَعِمت بالحياة ولا استمتعت

(١) عشيرة الرجل ورهطه الأدنون إليه .

بطيبات هذه الدنيا. وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهي تشهد انتزاعه، أو اختُطف ابنها وهي لا ترى اختطافه، وكانت ترى توَلُّه[١] تلك الأم وتفجعها وحسرتها التي لا تخمد، ولوعتها[٢] التي لا تنطفىء ودموعها التي لا تغيض[٣]. وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها: هذا غلام قد اختطف من ملك كسرى، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يَرُدُّوا عنه العاديات[٤]، فكيف بنا نحن في يثرب، هذه المدينة الخائفة التي يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها، والتي يَسُلّ بعض أهلها السيف على بعض، والتي لا يأمن أهلها أن تدور عليهم دائرة، أو تنوبهم نائبة، أو يُلمّ بهم خطبٌ من الخطوب! فلما بلغت الدار واستقرت فيها، وعنيتْ بالصبي حتى أمن بعد خوف وأنس بعد وحشة وطعم بعد جوع، قالت لنفسها في نفسها: هيهات أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لي من الولد من يصيبه مثل ما أصاب هذا الصبي، ومن أذوق فيه من الحزن والثكل[٥] مثل ما ذاقت في هذا الصبي أمُّه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير. ولو استجابت الحياة لثبيتة لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبي الفارسي، ولاتخذته لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد. ولكن الناس يقدِّرون ويدبرون، والأيام تجري على غير ما قدروا ودبَّروا.

فقد عنيت ثُبيتة بسالم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح غلاماً ذكيَّ القلب، سريعَ الحسّ، حديدَ اللسان، كما قدَّر اليهودي، أو أكثر مما قدَّر. وكانت ثُبيتة له مُحبة وبه مُغتبطة وعنه راضية. وقد خطبها الرجال من

---

(١) وَلَه وتولَّه حزن حزناً شديداً حتى كاد يذهب عقله.

(٢) اللوعة حرقة الحزن أو الهوى والوجد.

(٣) غاض الماء غار أو نضب.

(٤) الخطوب.

(٥) ثكلت الأم ابنها فقدته.

الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلَّت[1] على أهلها في ذلك حتى أعيتهم[2]. ولكن وفد قريش يمرون بيثرب مُنْصَرفهم من الشام ذات عام ، فيمكثون فيها أياماً. ويسمع أبو حذيفة هُشَيْم بن عتبة بن ربيعة بحديث ثبيتة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب أن يتزيد من أخبارها فَيُلِمُّ بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثبيتة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما سمع عنها فرضي. وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر ، حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها وذوي المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم الذي رُدَّ عنه أصحاب الفيل ، والذي لا يعدو عليه إلا الفجرةُ الآثمون ، شكَّت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخِطبة هذا المكِّي. ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم إلى مكة في وفد قريش؛ فلا يكاد يستقر حتى ينكر من أمرها بعض الشيء ، لقد أصبح فغدا على أندية قريش ، ثم أمسى فراح إلى أندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً تريد نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلاً. يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حَدَث في مكة لا يدري أيسيرٌ هو أم خطيرٌ ، ولكن شيئاً قد حدث فغيَّر من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه. ثم يلتمس بعض صديقه في أندية قريش فلا يجدهم. يسأل: أين عثمان بن عفان الأموي؟ وأين طلحة بن عبيد الله التيمي؟ وأين فلان وفلان من ذوي مودته؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يُؤْثر بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوي بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين. ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد

---

(١) اعتلَّ بالأمر تعلَّل واعتذر.

(٢) أعجزتهم .

الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا. ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضح له وجهُ الحزم من أمره ، أن صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم ، فما له يسأل عنهم ولا يُلِمُّ[١] بهم! ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قَصْد فلان أو فلان من أولئك الصديق.

وقد ألمَّ بعثمان بن عَفَّانَ وكان له خليلاً على ما كان بينهما من تفاوت في السن. كان عثمان قد تخطَّى[٢] الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعدُ ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زادته الصحبة في الأسفار قوة وأيْداً[٣]. فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقَّاه صديقه بما تعوَّد أن يتلقاه به من البِشر[٤] والبشاشة ومن الرفق واللين. ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام[٥]. قال أبو حذيفة: لقد التمستك أبا عمرو في أندية قريش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجدك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك؟ قال عثمان: لم أنشط لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث. قال أبو حذيفة: فهل أنكرت من قومك شيئاً؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب. فأعاد عليه أبو حذيفة مقالته ، فأمعن[٦] عثمان في الصمت. قال أبو حذيفة: إن لك أبا عمرو لشأناً ولا واللاَّت والعُزَّى. ولكن عثمان لم يكَدْ يسمع قَسمَه هذا حتى لوى[٧] وجهه. وينظر أبو حذيفة فإذا وجه صاحبه قد

---

(١) ألمَّ بالقوم وعلى القوم أتاهم فنزل بهم.
(٢) تجاوز.
(٣) متانة.
(٤) بشاشة الوجه
(٥) الانقباض والاستحياء.
(٦) أمعن في الأمر وأبعد وبالغ.
(٧) صرف.

ارْبَدَّ[١] وظهر فيه غضَبٌ لم يألفه منه قط. قال أبو حذيفة: وَيْحَك أبا عمرو! إنك لتعرف ما بينك وبيني من الود، وإنك لي لخليل وفيّ أمين، فأظْهِرْني على ذات نفسك. قال عثمان في صوت وادع لين: فإن شئت أن تستبقي ما بيتنا من الود فلا تذكر اللات والعزَّى وهذه الآلهة التي لا تغني عنكم شيئاً. هنالك وجم[٢] أبو حذيفة وجمة قصيرة، ثم قال: وَيحك أبا عمرو! فإنك إذن قد صبوت[٣]؟ قال عثمان في صوت أشد دعة وأعظم ليناً: لم أصْبُ أبا حذيفة، وإنما اهتديت. إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السنُّ بعد، ولكنك قد رأيت الدنيا وطوَّفت في أقطار الأرض ويلوت أخبار الناس وجرَّبت الأحداث والخطوب، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلي لأنصاب[٤] من خشب وصخر صوَّرها الناس بأيديهم، ويستطيع من شاء منهم أن يجعلها جُذاذاً[٥]؟ قال أبو حذيفة: ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً، ولكني لم أفكر في هذه الأشياء قط، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم. قال عثمان: وإذا أسفر الهدى وحصحص[٦] الحق؟ قال أبو حذيفة: فقد وجب علينا أن نهتدي ونتَّبع الحق، متى تستصحبني إلى محمد؟ قال عثمان: الآن إن شئت. وأمسى أبو حذيفة مسلماً، ودخل بإسلامه على ثُبيتة، فلم تكد تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به، وسمع الغلام سالم حديثهما فمالت إليه نفسه، وإذا هو يؤمن كما آمنا. ولم يتقدَّم الليل حتى زادت بيوت الإسلام في مكة بيتاً.

---

(١) تغيَّر لونه واغبر.

(٢) عبس وجهه وأطرق لشدة الحزن.

(٣) صبا يصبو مال إلى الصبوة أي جهلة الصبيان. .

(٤) ما عبد من دون الله من الأصنام والتماثيل.

(٥) جذّه قطعة وكسره والجُذاذ المكسَّر.

(٦) بان ووضَح.

وتمضي أيام قليلة وإذا ثبيتة تعلم أن محمداً يدعو إلى إعتاق الرقيق ، ويعد الذين يَفُكُّون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً: فتدعو إليها غلامها ذاك الفارسي وتقول له: اذهب سالم فإني قد سيَّبتك[١] لله عزَّ وجَلَّ ، فوالِ من شئت. قال سالم لأبي حذيفة: فهل لك في أن تكون لي وليّاً؟ قال أبو حذيفة: هيهات! لن أتخذك مولى ، وإنما أنت ابن لي منذ اليوم.

استوثق[٢] رسول الله ﷺ لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حَيَّيْ يثرب: الأوْس والخزرج ، وعاهدهم أن يُؤووه وينصروه ويحموا ظهره ويُقاتلوا من دونه من بَغَى عليه أو أراده بسوء حتى يُبلغ رسالات ربه. وبايعه على هذا العهد نُقباء هذين الحيين الأوس والخزرج. ثم أذِن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين في الهجرة إلى مستقرهم الجديد. وكان الإسلام قد سبقهم إلى يثرب ، بشَّر به مَنْ أرسله رسول الله ليبشر به. فكانت الهجرة إلى دار استقر فيها الإسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون. وقد أذن رسول الله لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسالاً ، وهو ﷺ مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الخروج. واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار في قُبَاء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدم عليهم رسول الله. وكانوا في أثناء ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة. وينظر المسلمون فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالمُ بن أبي حذيفة ، فيُقَدِّمونَهُ ليؤمهم في الصلاة ، وفيهم أعلامٌ من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود. وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من

---

(١) أطلقتك.

(٢) استوثق منه أخذ الوثيقة..

المهاجرين والأنصار يقدِّمون سالماً ليؤمهم في الصلاة. فيُكبرون[١] من أمر سالم هذا بادىء الرأي، ثم لا يلبثون أن يَذكروه ويعرفوه. يقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلي بهذه الناجمة[٢] من أصحاب محمد مَنْ هَاجَرَ منهم إلى المدينة ومَنْ كان من أهلها! إنه سالم. أَلاَ تذكرون سالماً؟ فيجهد القوم أنفسهم ليذكروه، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبياً حَدَثاً[٣] لا يُحسن العربية ولا يفهمها. وما هي إلا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها، وحتى يروا ذلك الصبي الذي مسه الضّرُّ وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً، واشترته ثُبيتة بنت يَعار، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه. ثم يقول بعضهم لبعض: لو عاش سَلام بن جبير لرأى من صبيه ذاك عجباً. ثم يقول بعضهم لبعض: ألاَ ترون إلى هذه الناجمة من أصحاب محمد يؤمُّهم فارسي قد كان بالأمس عبداً؟ ثم يردُّ بعضهم على بعض رَجْع[٤] هذا الحديث فيقول: إن لهؤلاء الناس لشأناً. إنهم يُسوِّدون العبيد، وَيُلغُون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق، وإنا لنرحم قريشاً مما ألمَّ بها، وإنَّا لنعذِر قريشاً مما فعلتْ بمحمد وأصحابه. ولو استطعنا لفتناهم كما فتنتهم قريش، ولنفيناهم عن أرضنا كما نفتهم قريش. ولكن هل إلى هذا من سبيل؟ فيقول قائلهم: هيهات! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا. ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدِّثين يسمعون ثم يُنكرون ثم يُؤثرون الصمت، فلم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يَعْجَبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس، ثم هو يَؤمُّ الأحرار في صلاتهم اليوم. ثم يتتبعون

(١) أكبر الأمر رآه كبيراً وعظم عنده.

(٢) الجماعة الناشئة الجديدة.

(٣) شاباً.

(٤) رجع الحديث أو الرسالة جوابه.

المهاجرين فيرون فيهم نفراً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم إسلامهم. ثم يتتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدَّت عليهم الحرية بعد أن نشؤوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإخاء والعدل والنَّصَفة[١] والمساواة. ثم يتحدَّثون في ذلك إلى المسلمين من قومهم ، فيقول لهم هؤلاء: إن الإسلام لا يفرق بين الحر والرقيق ، ولا بين الناس إلا بالتقوى وبما يقدِّمونه بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات. هنالك تطمح قلوبهم إلى هذه المساواة التي لم يسمعوا بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذي لم يألفوه ، وإذا هم يميلون إلى الإسلام ، ثم يسرعون إليه ، ثم يحرصون على أن يَؤمَّهم سالم بن أبي حذيفة ، ذلك الذي كان عبداً بالأمس فأصبح يؤمُّ الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدي الله[٢]

* * *

(١) الإنصاف والعدل.

(٢) الوعد الحق.

الفِـردَوس الإسـلامي فـي قـارّة آسيَـا

للأستاذ علي الطنطاوي[1]

نحن الآن في الهند ، في القارة التي حكمناها ألف سنة ، في الدنيا التي كانت لنا وحدنا ، وكنا نحن سادتها ، في (الفردوس الإسلامي المفقود) حقاً ، ولئن كانت لنا في إسبانيا أندلس فيها عشرون مليوناً ، فلقد كان لنا ههنا أندلس أكبر ، فيها اليوم أربعمائة مليون ـ خُمُس سكان الأرض ، ولئن تركنا في الأندلس من بقايا شهدائنا ، ودماء أبطالنا ، ولئن خلَّفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء ، فإن لنا في كل شبر من هذه القارة دماً

---

(١) هو علي بن مصطفى الطنطاوي ، وُلد عام ١٣٢٧ هـ في دمشق ، وكان أبوه أمين الفتوى ، وقرأ على علماء دمشق كالشيخ أبي الخير الميداني والشيخ صالح التونسي وغيرهم ودخل مدرسة نظامية ، ونال شهادة الحقوق من الجامعة السورية ، ومكث أقل من سنة في دار العلوم المصرية ، واشتغل بالصحافة فترة وبتعليم اللغة العربية في العراق ولبنان ومصر ، ودخل في القضاء عام ١٩٤٠ م ولم ينقطع عن التدريس والكتابة ، كان مستشاراً بمحكمة التمييز بدمشق ، ثم انتقل إلى الحجاز بعد الطوارىء في سوريا ، وتعيّن أستاذاً في إحدى الكليات في مكة ، ثم انصرف إلى الإذاعة والتليفزيون يحدّث ويجيب ويفيد في علم غزير وأدب جم .
الأستاذ علي الطنطاوي من كبار الكتاب الذين أنجبتهم الأمة العربية في هذا العصر ، تجمع كتابته بين الرشاقة والجزالة ومحاسن القديم والجديد ، ومقالته هذه التي يستعرض فيها تاريخ الهند الإسلامي وقد كتبها على أثر زيارته للهند ، تدل على اقتداره على اللغة وبلاغته في التعبير ، له من الكتب «أبو بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و«رجال في التاريخ» و«قصص من التاريخ» وكتب كثيرة .

زكياً أرقناه، وحضارة خيّرة وشيت[١] جنباتها[٢]، وطرزت[٣] حواشيها، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها معاهد ومدارس، كم أنارت عقولاً، وفتحت للحق قلوباً، ولا تزال تفتح القلوب وتنير العقول، وإن لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهر الأرض.

لقد مرت بالهند أربعة عهود إسلامية، عهد الفتح العربي، ثم عهد الفتح الأفغاني، ثم عهد المماليك، ثم عهد المغل.

كان أول من حمل إلى الهند لواء الإسلام، محمد بن القاسم الثقفي[٤]، القائد الشاب الذي هجر منازل قومه في الطائف، ومشى إلى العراق في ركاب ابن عمه الحجاج، الذي ظلم كثيراً وقسا كثيراً، وكانت له هَنات[٥] غير هينات، ولكنه هو الذي أبقى لنا العراقين وفتح لنا المشرق كله والسند فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الأهلية التي ضرمها الخوارج، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند، ولولا

---

(١) وشى الثوب يشي وشياً وشية حسّنه بالألوان ونمنمه ونقشه.

(٢) جوانبها ونواحيها.

(٣) طرّز الثوب بكذا أعلمه.

(٤) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، كان من بني أعمام الحجاج وختنه، عقد له الحجاج على ثغر السند فوصل إلى الملتان يفتح ويدوخ وفتح السند ومات الحجاج ومات الوليد بن عبد الملك وولى سليمان وولى يزيد بن عبد الملك السكسكي السند فحمل محمد بن القاسم مقيداً وبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج وعذّبه صالح والي العراق في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح، وقد كان فتح السند على يد محمد بن القاسم وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان قتله في نحو سنة ست وتسعين..

(٥) خصلات شرّ وزلات.

الإيمان الذي يصنع العجائب ، ولولا الهمم الكبار التي تزيح[(١)] الجبال ، ولولا البطولة التي وضعها محمد ﷺ في قلوب العرب ، لما استطاع هذا الجيش أن يقطع خُمس محيط الكرة الأرضية ، وهو ماشٍ على الأقدام ، أو معتلٍ ظهور الإبل والدواب ، ما عرف قطاراً ولا سيارة ، ولا رأى على متن الجو طيارة ، ولما وضع ابن القاسم الحجر الأول في هذا الصرح الهائل ، وأدخل الشعاعة الأولى من هذه الشمس التي أشرقت في مكة إلى هذه القارة ، وفتح السند ولم تبلغ سنه سن تلاميذ البكالوريا[(٢)] !

* * *

وعاد إليها لواء الإسلام مرة ثانية في القرن الرابع ، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوي ، الذي خرج من غزنة وكانت قصبة[(٣)] بلاد الأفغان ، وهي إلى الجنوب من كابل ، فاخترق ممر خيبر ، المضيق المهول الذي يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً ، والذي تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته أسد الفلا[(٤)] ، وجن الليالي السود ، ثم دخل الهند وخاض عشرات من المعامع[(٥)] الحمر ، التي يرقص فيها الموت ، ويشتعل الدم ، واجتمع عليه أمراء الهند وأقيالها[(٦)] جميعاً ، فطحن أبطالهم ومزق جيوشهم ، ومضى حتى جاب البنجاب ، واستجابت له هاتيك البلاد ، فأقام فيها حكم الله ، وأذاق أهلها عدالة الإسلام .

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن ، السلطان شهاب الدين الغوري ، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً ، وأكمل منه ما كان

(١) أزاحه أبعده .
(٢) الشهادة الثانوية .
(٣) أعظم مدن البلاد .
(٤) جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .
(٥) الحروب .
(٦) جمع قَيل وهو الرئيس .

ناقصاً ، وملك شمالي الهند ، وبلغت جيوشه دهلي ، فأوقدت فيها منار الدعوة الإسلامية ، فضوأت بعد الظلمة ، وأبصرت بعد العمى ، ودوّى في أرجائها الصوت الذي خرج من بطن مكة ، صوت المؤذن ينادي في قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والأصنام ، أن خابت آلهتكم ، وهوت أصنامكم ، إنما هو إله واحد ، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قامت في الهند حكومة إسلامية قرارتها دهلي.

وبينما كان قطب الدين أيبك قائد السلطان الغوري يفتح المدن بسيفه كان الشيخ معين الدين الجشتي[١] يفتح القلوب بدعوته فدخل الناس في الإسلام أفواجاً، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد ، وكان منه اليوم ثمانون مليوناً من المسلمين في باكستان ، وأربعون مليوناً غيرهم في هندستان ، وسيبقى الإسلام في تلك الديار إلى آخر الزمان.

وولي الملك بعد السلطان الغوري قائده قطب الدين ، الذي فتح دهلي وبدأ به عهد المماليك ، وكان منهم ملوك عظام حقاً ، منهم قطب الدين هذا باني منارة قطب (قطب مينار) الذي يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلي ، وشمس الدين الألتمش وغياث الدين بلبن.

ثم جاء الخلج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجي الذي عدل في الناس ، وضبط البلاد ، وبسط الأمن ، وأوغل[٢] في الهند.

وجاء من بعدهم آل تغلق ، وكان منهم الملك الصالح المصلح

---

(١) هو الشيخ الإمام الزاهد الكبير الحسن بن الحسن السجزي شيخ الإسلام معين الدين الأجميري، كان مولده سنة ٥٣٧ ببلدة سجستان، قرأ العلم وسافر ودخل هارْوَنْ قرية من أعمال نيسابور وأدرك بها الشيخ عثمان الهاروني فلازمه وأخذ عنه الطريقة وصحبه عشرين سنة ثم قدم دهلي ثم سار إلى أجمير وسكن بها، وإليه تنسب الطريقة الجشتية ويرجع الفضل في دخول العدد الكبير من المشركين في الإسلام واستقرار الإسلام في هذه البلاد، توفي إلى رحمة الله تعالى سنة ٦٣٢ هـ، ودفن في أجمير..

(٢) أوغل وتوغّل في البلاد ذهب وأبعد.

فيروز ، ثم جاء اللودهيون ، وكان في أحمد آباد ملوك ذكَّروا النَّاس بالخلفاء الراشدين كمظفر الحليم الكجراتي .

وكان للعلماء في دولة المماليك دولة أكبر منها ، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك ، ولقد روى أخونا أبو الحسن علي الحسني الندوي [١] ، أن السلطان شمس الدين الألتمش الذي دانت[٢] له البلاد كلها (وكان في القرن السابع الهجري) وخضع له ملوك الهند جميعاً ، كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكي[٣] فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك ولا يزال يكبس[٤] رجليه ويخدمه ويذرف[٥] الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف .

وإن علاء الدين الخلجي أكبر ملوك الهند في زمانه استأذن الشيخ نظام الدين البدايوني ، الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن له الشيخ .

ولما مرض الشيخ الدولة آبادي المفسر[٦] وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقي ، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت .

وكانت زاوية نظام الدين البدايوني[٧] ، أحفل بالقصّاد ، وأزخر

---

(١) في رسالته «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» .

(٢) ذلّت وأطاعت .

(٣) هو شيخ الإسلام قطب الدين بختيار الأوشي المعروف بالكعكي كان من كبار أولياء الله ، بايع الشيخ معين الدين الجشتي المذكور وفاز بالخلافة وله عشرون سنة ، وقدم دهلي وتوطن بها ، وقام بدعوة الخلق إلى الله وانتفع به خلائق ، ومن خلفائه الشيخ فريد الدين كنج شكر الأجودهني (م٦٦٤ هـ) توفي رحمه الله سنة ٦٣٣ هـ .

(٤) كبس يكبس كبساً باب ضرب على الشيء شدَّ عليه وضغط يعني يغمز رجليه .

(٥) ذرَّف تذريفاً الدمع صبَّه .

(٦) هو ملك العلماء الشيخ أحمد بن عمر شهاب الدين الدولة آبادي ، صاحب الإرشاد في النحو والبحر الموّاج في التفسير ، ولد في دهلي وتوفي في جونبور سنة ٨٤٩ هـ .

(٧) هو الشيخ الإمام نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني ، أحد الأولياء المشهورين بأرض =

بالناس من قصر الملك ، وكان سلطانه الروحي أعظم من سلطان الملك المادي .

كان ذلك يا سادة ، لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات ، وزهدوا بما في أيدي الملوك ، فسعى إلى أبوابهم الملوك ، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا .

وفي عهد السلطان إبراهيم اللودهي سنة ٩٣٣هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهي وكانت مائة ألف ، باثني عشر ألفاً من فرسان المغل المسلمين ، وأسس دولة المغل التي كانت أكبر الدول الإسلامية في الهند وكان من ملوكها ، الملك الصالح أورنك زيب .

ولما مات بابر ، وولي ابنه همايون ، وثب عليه رجل عصامي[1] لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك ، فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة في الدول ، ونظم الإدارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق إلى مثله ، هو السلطان شيرشاه السوري ولما مات عاد الملك إلى ابن همايون وهو الإمبراطور أكبر وكان من أعاظم الملوك ، حكم الهند كلها إلا قليلاً ، وطال حكمه فكفر في آخر أيامه بالله وأكره الناس على الكفر ، وابتدع لهم ديناً جديداً ، وأزال معالم الإسلام ، وأبطل شعائره ، وكان معه الجيش ، وكان معه الأمراء ، وكانت البلاد كلها في يده ، فمن يقوم في وجهه ، ومن ينصر الإسلام ، ومن يدافع عن الدين؟

= الهند، انتهت إليه الرئاسة في دعاء الخلق إلى الله والتسليك في طريق العبادة والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة، ولد سنة ٦٣٦ هـ ببدايون، وسافر إلى دهلي وقرأ على أساتذتها وسافر إلى أجودهن وأخذ عن الشيخ الكبير فريد الدين مسعود (كنج شكر) الأجودهني وصحبه مدة وأجازه الشيخ وانقطع إلى الله سبحانه بقلبه وقالبه واشتغل بالدعوة إلى الله والتربية، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ٧٢٥ هـ.

(١) كبير النفس عالي الهمة .

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم ، قليل المال والجاه والأعوان ولكنه قوي الإيمان بالله ، كبير النفس والقلب ، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل ما فيها من مال ومناصب ولذائذ ، واستهان بالحياة فهو لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه ، هو الشيخ أحمد السرهندي[١] . ولم يكن يطمع بإصلاح الإمبراطور ، ولا يجد فيه أملاً ، فجعل يتصل بالقواد الصغار ، وبالحاشية ، ويعد لانقلاب شامل ، لا لانقلاب عسكري ثوري ، بل لانقلاب روحي فكري ، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والإيمان . ولما مات أكبر وولي ابنه جهانكير[٢] استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي ابن الشيخ السرهندي أن يشرف على تربية طفل صغير ، هو أحد حفدة جهانكير .

ولم يكن هذا الطفل أكبر إخوته ، ولا كان ولي العهد ، ولم يكن يؤمل له أن يلي الملك ، ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده ، وبذل له رعايته كلها ، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية ، بين المشايخ والمدرسين ، فقرأ القرآن وجوَّده ، والفقه الحنفي وبرع فيه ، والخط وأتقنه ، وألمَّ بعلوم عصره ، وربي مع ذلك على الفروسية ، ودرب على القتال . ولما مات جهانكير وولي شاه جهان ، وَلَّى كلاً من أبنائه قطراً من أقطار الهند ، وكان نصيب هذا الطفل وهو (أورنك زيب[٣]) ولاية الدكن .

---

(١) هو الإمام الرباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي مجدد الألف الثاني، وُلد في سرهند (الهند) ورسخ في العلوم وبايع الشيخ عبد الباقي النقشبندي (م١٠١٤ هـ) ونال منه الإجازة والخلافة في الإرشاد، وقام بالدعوة إلى الدين الصحيح ومحاربة البدع والإلحاد، وإحياء السُّنن، نفع الله به وبأولاده وخلفائه خلقاً لا يحصون وعادت به الهند إلى الإسلام، توفي سنة ١٠٣٤ هـ.

(٢) يعني فاتح الدنيا ومتملِّكها.

(٣) يعني زينة العرش.

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها في الحسن ، ولا مثيل لحبه إياها في الحب هي (ممتاز محل) ، فماتت ، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر ، وخلّدها ولكن لا بصورة ولا تمثال ، لقد رثاها فخلَّدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها ، ولا لحن موسيقي أغنية أعذب منها ، ولا صور مصور لوحة أروع منها ، فهي شعر ، وهي أغنية ، وهي صورة ، وهي أعظم تحفة في فن العمران.

هي تاج محل ، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا ، وما زال يدهشها ، والذي لان فيه الرخام لهذه الأيدي العبقرية فجعلت منه أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف ، ونقشته هذا النقش الذي لم يعرف قط نقش في مثل دقَّته وفنه وسحره.

هذا القبر الذي يأتي اليوم السياح ، من أقصى أميركا إلى (اكره) قرب دهلي ليشاهدوه ، ويسمعوا قصته وهي أعظم قصص الحب على الإطلاق. لقد صدَّع[١] موت هذه الزوجة الحبيبة الإمبراطور العظيم ، فزهد في دنياه لأنها كانت هي دنياه وحقر ملك الهند لأنها كانت أعظم عنده من ملك الهند ، ولم يعد له أرب[٢] بعدها إلا أن يملص[٣] من حاضره ، ويوغل[٤] بذكرياته في مسارب[٥] الماضي ، ليعيش بخياله معها ، يستروح[٦] رياها[٧] ، ويستجلي جمالها ، ويسمع خفي نجواها ، ويحس حرارة أنفاسها ، ثم استحال حبه إياها حباً لهذا القبر الذي شاده

---

(١) كسر قلبه وأحزنه.

(٢) حاجة.

(٣) أملص أفلت وتخلّص.

(٤) يمعن ويبعد.

(٥) منافذه ومذاهبه.

(٦) استروح الشيء تشمّمه.

(٧) الريح الطيبة

لها ، فجن به جنوناً ، وصار يحس في برودته حرارتها ، وفي جموده خطراتها ، وفي صمته حديثها ، وانصرف عن الملك وأهمله فوثب ابنه الأكبر فولي الملك إلا اسمه ، وتصرف بالأمر وحده ، ونازعه إخوته ، وجاء كل من إمارته : شجاع من البنغال ، ومراد بخش[١] من (الكجرات) وأورنك زيب هذا من الدكن ، واستطاع أن يغلبهم جميعاً ، وينفرد بالأمر ووضع أباه في قصر من قصور الملك ، جعل له فيه ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجواري ، وجعل له حيال سريره مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح يرى منها (تاج محل) ، على البعد وهو مضطجع في سريره كأنه أمامه ، وكان ذلك كل ما بقي له من لذائذ دنياه!

وكان جلوسه على سرير الملك سنة ١٠٦٨ هـ (قبل ثلثمائة سنة) وكأني بكم تظنون أن هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية ، سيدخل خلوته ، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية[٢] ، يصلي ويقرأ في كتب الفقه ، ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها ، كلا يا سادة ، وما هذه خلائق الإسلام ، ولا هذي طريقته ، إن العمل لإسعاد الناس ، وإقامة العدل ، ورفع الظلم ، وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض ، كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب ، بل هو خير من صلاة النفل ، وصوم التطوع ، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة .

لذلك ترونه لبس لأمة[٣] الحرب من أول يوم (وكان يومئذ في الأربعين) ونهض بنفسه ، يقضي على الخارجين ، ويقمع المتمردين ، ويفتح البلاد ، ويقرر العدالة والأمن في الأرض ، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة ، ومن بلد يصلحه إلى بلد ، حتى امتد سلطانه

---

(١) معناه معطي السؤل والمراد.
(٢) الزاوية.
(٣) الدرع جمعها لأم ولؤم.

من سفوح همالية ، إلى سيف البحر من جنوب الهند ، وكاد يملك الهند كلها ، حتى قضى شهيداً في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل.

من خاض هذه المعارك ، استنفدت وقته كله ، ولم تدع له بقية لإصلاح في الداخل ، أو نظر في أمور الناس ولكن أورنك زيب ، حقق مع ذلك من الإصلاح الداخلي ما لم يحقق مثله إلا قليل . . من الملوك.

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها ، بمثل عين العقاب ، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد ، فأسكن كل نأمة[١] فساد ، وأقر كل بادرة اضطراب ، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقياً من الزندقة التي جاء بها (أكبر) أبو جده ، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفح من نارها فأبطل منها ثمانين نوعاً ، وسن للضرائب سنة عادلة ، وأوجبها على الجميع فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء ، ولولا هيبته وشدته في الحق لأبوها عليه ، وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً جديدة ، ويكفي لتدركوا طول هذه الطرق أن تعرفوا أن طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السوري ، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر ، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقب فيه المساجد والخانات[٢] !

وبنى المساجد في أقطار الهند ، وأقام لها الأئمة والمدرسين ، وأسس دوراً للعجزة ، ومارستانات[٣] للمجانين ، ومستشفيات للمرضى.

وأقام العدل في الناس جميعاً ، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم

(١) النغمة والصوت يقال أسكت الله نامته أي أماته.

(٢) جمع خان وهو محلّ نزول المسافرين ، والكلمة دخيلة.

(٣) جمع مارستان وهو دار المرضى ، والكلمة من الدخيل أصله بيمارستان.

القضاء ، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً ، فكان يحكم في القضايا الكبرى بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفي معللاً له مدللاً عليه ، ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية ، وكان للإمبراطور امتيازات فألغاها كلها ، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية ، وإن مَنْ له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس.

كان الرجل عالماً ، فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي ، فأدنى العلماء ولازمهم ، وجعلهم خاصته ومستشاريه وبنى لهم المدارس ، وجعل الرواتب.

ووفق إلى أمرين ، لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين.

الأول: أنه كان لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بالعمل ، بتأليف أو تدريس ، لئلا يأخذ المال ويتكاسل ، فيكون قد جمع بين السيئتين ، أخذ المال بلا حق ، وكتمان العلم ـ فما قول مدرسي الإفتاء والأوقاف؟

والثاني: أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية ، في كتاب واحد ، يتخذ قانوناً ، فوضعت له وبأمره وبإشرافه ونظره الفتاوى التي نسبت إليه فسميت الفتاوى العالمكيرية ، واشتهرت بالفتاوى الهندية ، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء لأنها من أشهر كتب الفقه الإسلامي ، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً.

وكان ـ بعد ذلك كله ـ يؤلف ، ألَّف كتاباً في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية ، ويكتب الرسائل البليغة ، التي تعد في لسانهم من روائع البيان ، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها ، وأنه حفظ القرآن بعد أن ولي الملك ، وأنه كان شاعراً موسيقياً ، ولكنه ترك ذلك ، وكرهه ، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها.

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال ، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائباً عن المصر لأمر من الأمور ، يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ، ثم يذهب حيث شاء ، وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر ، وما أدراكم ما حر الهند؟ ويحيي الليالي بالتراويح ، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد ، ويصوم الإثنين والخميس والجمعة ، في كل أسبوع من أسابيع السنة ، ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الأذكار ، ويمد أهل الحرمين بالصِلات المتكررة الدائمة .

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم ، والبراعة في فنون الحرب ، وفي التنظيم الإداري . فكيف استطاع أن يجمع هذا كله؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة؟ ويقضي بين الناس؟ ويؤلف في العلم؟ ويكتب المصاحف؟ ويحفظ القرآن؟ ويدير هذه القارة الهائلة؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة؟

لقد كان يقسِّم بين ذلك أوقاته ، ويعيش حياة مرتبة ، فوقت لنفسه ووقت لأهله ، ووقت لربه ، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها .

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يعيش عيش الزهد والفقر ، ما مد يده ولا عينه إلى حرام ، ولا أدخله بطنه ، ولا كشف له إزاره ، كان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يمينه من كتابة المصحف لا من أموال الدولة .

رحمة الله على روحه الطاهرة[١]

* * *

---

(١) مجلة «المسلمون» العدد الخامس من المجلد الرابع .

فهرس الموضوعات

المترجمون في الكتاب

ہماری مطبوعات

(عمدہ کاغذ۔بہترین طباعت)

شمار	اسمائے کتب
۱	قصص النبیین اول
۲	قصص النبیین دوم
۳	قصص النبیین سوم
۴	قصص النبیین چہارم
۵	قصص النبیین پنجم
۶	القراءۃ الراشدہ اول
۷	القراءۃ الراشدہ دوم
۸	القراءۃ الراشدہ سوم
۹	معلم الانشاء اول
۱۰	معلم الانشاء دوم
۱۱	معلم الانشاء سوم
۱۲	مختارات اول
۱۳	مختارات دوم
۱۴	منثورات
۱۵	الادب العربی
۱۶	شرح شذور الذہب
۱۷	الفقہ المیسر
۱۸	قطر الندی
۱۹	زعیمان لحرکۃ الاصلاح
۲۰	تہذیب الاخلاق
۲۱	شذی العرف
۲۲	مسلم شریف اول
۲۳	مسلم شریف دوم
۲۴	علم التصریف
۲۵	تمرین النحو

ناشر
مجلس صحافت ونشریات
ٹیگور مارگ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ

ملنے کے پتے
☆ مجلس تحقیقات ونشریات اسلام، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ ندویہ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ الفرقان، نظیر آباد، لکھنؤ
☆ مکتبہ احسان، حسن منزل، مکارم نگر، لکھنؤ
☆ مکتبہ شباب، شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ
☆ مکتبہ دارین، نزد شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ

ہماری مطبوعات

(عمدہ کاغذ- بہترین طباعت)

شمار	اسمائے کتب
۱	تمرین الصرف
۲	رسالۃ التوحید
۳	حماسہ اول
۴	حماسہ دوم
۵	حیات عبدالباریؒ
۶	مختار الشعر العربی اول
۷	مختار الشعر العربی دوم
۸	العقیدۃ السنیہ
۹	تاریخ الادب العربی الاسلامی
۱۰	تاریخ الادب العربی الجاہلی
۱۱	مقدمہ عبدالحق دہلویؒ
۱۲	سیرت مولانا محمد علی مونگیریؒ
۱۳	تذکرہ فضل الرحمٰن گنج مرادآبادیؒ

شمار	اسمائے کتب
۱۴	سیرت مولانا محمد یوسفؒ
۱۵	اسلام کی تعلیم
۱۶	تفہیم المنطق
۱۷	مبادی علم اصول الفقہ
۱۸	صدر یار جنگ مولانا حبیب الرحمٰن شروانیؒ
۱۹	ترانۂ ندوہ
۲۰	درجہ اول کا حساب
۲۱	شرح العقیدۃ الطحاویہ
۲۲	اصول الشاشی
۲۳	علم اصول الفقہ
۲۴	تاریخ ندوۃ العلماء اول
۲۵	تاریخ ندوۃ العلماء دوم

ناشر
مجلس صحافت ونشریات
ٹیگور مارگ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ

ملنے کے پتے

☆ مجلس تحقیقات ونشریات اسلام، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ ندویہ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ الفرقان، نظیر آباد، لکھنؤ
☆ مکتبہ احسان، حسن منزل، مکارم نگر، لکھنؤ
☆ مکتبہ شباب، شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ
☆ مکتبہ دارین، نزد شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ